الفصل الخامس

الرحلات الحديثة
إلى اليمن وعدن وحضرموت

❑ رحلة إلى مأرب وسدها الخالد[١] ❑

أول عربي يزورها في التاريخ الحديث
وبعض رحلته تحت رعاية المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول

عُرف حضرة المجاهد نزيه بك المؤيد العظم سليل آل العظم الكرام في سورية بالشجاعة والإقدام والجرأة وحب المغامرات وقراع الأبطال والكماة.

ولقد كان حضرته في جملة الذين نفاهم أحمد جمال باشا طاغية الترك إلى الأناضول في أيام الحرب العظمى حين شرع في تنفيذ خطته القائمة على التخلص من أحرار العرب وتشتيت شمل أسرهم الكبرى في مجاهل الأناضول، ولكنّه عرف كيف يتخلص من المنفى فعاد سرًّا إلى الشام، ولحق بالبادية فانضم إلى الثورة العربية، وقاتل تحت لواء المغفور له جلالة الملك فيصل، وتخصص في استعمال «الديناميت» فكان ينسف مراكز الترك العسكري، ويخرب المحطات والجسور، ويدمر قطارات سكة الحديد، وظل هذا شأنه يكر وّيفرّ حتى انتهت الحرب، وأدخل ذلك الجيش منصورًا إلى دمشق في سنة ١٩١٨م وانهار الحكم التركي.

ولما بدأت سورية نضالها لمقاومة الاستعمار الفرنسي انضم إلى العاملين، واشترك في الحركة الأولى التي ظهرت عند زيارة المستر "كراين" لدمشق في شهر أبريل سنة ١٩٢٢م فصدر الأمر باعتقاله فلجأ إلى مصر، وقام فيها منفيًا مدة سنة ونيف، ثم سمح له بالرجوع فعاد إلى بلاده.

وكان في مقدمة الذين اشتركوا في الثورة السورية سنة ١٩٢٥م، فقد

(١) مجلة الرابطة العربية، العدد الأول، السنة الأولى، ٦ ربيع الأول، ١٣٥٥هـ/ ٢٧ مايو ١٩٣٦م، ص٣٥.

غادر دمشق وصهره الدكتور عبدالرحمن شهبندر في أوائل شهر أغسطس من تلك السنة، وقصد إلى جبل الدروز، ولم يلبث طويلاً حتى عاد إلى غوطة دمشق، وكانت مقرًا للثوار، فاشترك في المعارك التي دارت، وكان يقود إحدى العصابات -كما دلت قيادة إحدى القوى- حين شرع الثوار بالزحف إلى وادي التيم (حاصبيًا وراشيًا وجنوبي لبنان) فأبلى أحسن البلاء.

وظل في ميدان القتال يصول يجول حتى انتهت الثورة في سنة **١٩٢٧**م، فلجأ إلى فلسطين، ومنها جاء إلى مصر فأقام فيها حتى سنة **١٩٣٢**م، فسمح له بدخول بلاده، وأوقف حكم الإعدام الصادر بحقه فعاد إليها فاستقبل بالحفاوة الكبيرة، وهكذا فهو من مطاردي الدورين التركي والفرنسي.

وزار الحجاز واليمن مدة إقامته في مصر ونزل صنعاء وعرفه جلالة الإمام يحيى ملك اليمن فعرف فيه الإخلاص والمروءة فنشأت بينهما صلة ودّ، ودعاه جلالته في أواخر السنة الماضية لزيارته في عاصمته فلبى الدعوة وشدّ الرحال فنزل ضيفًا على جلالته تحوطه الرعاية والعناية.

واغتنم حضرته الفرصة السانحة للقيام بمغامرة جديدة -وهو بطل المغامرات والمجازفات- فطلب من جلالته أن يأذن له بالرحلة إلى مأرب (مملكة سبأ) ومشاهدة آثارها، ولا تزال شبه مجهولة فيصفها عن معرفة، ويأخذ صورها ورسومها بالفوتوغرافيا، ويقيس أبعادها، ويزيل اللثام عن كثيرٍ من أسرارها وخفاياها، فسمح له بعد لأي وطول تردد، فكان أول عربيّ أتيح له زيارة تلك البلاد المجهولة ووصفها بعد زيارة الهمداني لها في القرن الرابع ووصفها في كتابه الإكليل، ويقول الأستاذ جورجي زيدان في

كتابه «تاريخ حضارة العرب قبل الإسلام» -حين تكلّم عن سد مأرب-: إنّ ثلاثةً من المستشرقين الأوربيين حاولوا في العصور الحديثة بلوغ مأرب وهم "أرنو" و"يوسف ليفي" و"إدوارد غلازر"، فقد زارها هذا في أوائل هذا القرن بحماية إحدى القبائل اليمانية لقاء مبلغ كبير من المال قدمه لها، وهاج سكان مأرب والمناطق المحيطة بها حينما عرفوا بوجود «غريب» في بلادهم وحاولوا قتله فاضطرت القبيلة التي جاءت به إلى إخفائه وبذلك نجا من الموت، وأعادته فورًا إلى صنعاء من دون أن تُتاح له الفرصة الكافية للقيام بالمهمة التي شدَّ الرحال وتَجشّم الأخطار لأجلها، وقد وضع عن رحلته تلك بالألمانية كتابًا لا يزال مرجع العلماء والباحثين.

* * * * *

بيد أنّ ما لم يتيسر لـ"إدوارد غلازر" تيسّر لنزيه بك المؤيد على الوجه الأكمل، بفضل عناية جلالة الإمام يحيى ورعايته ومساعدته فقد أصحبه بخمسين جنديًا نظاميًا حين سفره للمحافظة عليه، فسار في ركبٍ قاده السيد محمد الكبسي الهجوة عامل مأرب (حاكمها الإداري)، وكان قد جاء صنعاء زائرًا لمقابلة جلالة الإمام فأوصاه بضيفه خيرًا، وأمر بأن ييسر له إتمام مهمته العلمية، وبأن يتولى حمايته ويسهر على راحته.

* * * * *

وتقع مأرب في شرق اليمن على الطريق بينها وبين حضرموت، وهي قائمة على حدود الربع الخالي فليس بعدها مدن ولا عمران، وتقطع المسافة بينها وبين صنعاء في خمسة أيام على ظهور البغال، ويقل العمران ويتقلص

ظله كلما أوغل الإنسان في السير شرقًا، ومع أنّه كان يسير في حملة يقودها أحد عمال الإمام بالذات وتضم ٥٠ جنديًا نظاميًا فقد استهدف وتعرّض للأخطار إذ تعرّضت قبيلة بني ظبيان للركب، وهي من القبائل النازلة على الطريق، ولم يسبق لها أن خضعت لحكومة من الحكومات التي تعاقبت على اليمن إلا للحكومة الحاضرة، وعلى بعض رجالها أنهم لا يسمحون لهذا الغريب أن يمر ببلادهم؛ لأنه «لا يأتينا من وراء مرور هؤلاء الغرباء سوى الضرر والأذى»، ولأنهم «لا يريدون أن يأتي أي غريب إلى بلادهم».

ولم يُنجه من أيديهم سوى مخاطبته إياهم باللهجة البدوية التي يتقنها ويجيدها؛ بسبب كثرة تجوله في البادية وصحبته للبدو، فاطمأنوا إليه ووثقوا به حينما خاطبهم بلهجتهم وحينما عرفوا بأنه ضيف الإمام وبأنه عربي مسلم، ويقول حضرته: إنّ لهجة بدو اليمن لا تختلف كثيرًا عن لهجة بدو الشام، فاللهجتان متقاربتان كثيرًا، مع أنّ هنالك اختلافًا ظاهرًا بين لغة عامة اليمانيين من أهل الحضر، ولغة عامة الشام.

وتمت الرحلة بعد ذلك بأمان فقد شاع بين البدو أنّ القادم مهندس من عرب الشام لا خطر منه فأقبل عليه الناس ووثقوا به، ويقول حضرته: إنّ معظم سكان اليمن ولا سيما سكان المنطقة الشرقية هم من البداوة الذين يقيمون في مضارب الشعر، ويترحلون في طلب الماء والكلأ، وإن عاداتهم وتقاليدهم لا تختلف في شيء عن عادات بدو الشام، والعراق، وفلسطين، ومصر، والحجاز، فاللغة واحدة والعادات واحدة.

ويتفاوت عدد سكان مدينة مأرب كما يرى أهلها لا كما هو الشائع -

بين ٥٠٠-٦٠٠ نسمة يعيشون عيشة بدائية، وكل ما في مدينتهم من آثار الحضارة والعمران حداد وصائغ، فالأول يؤمّن لهم لوازمهم، وحيث إنه لا أثر للحديد في تلك الديار فهو يلجأ إلى «ظرف» النحاس الأصفر الذي يؤلف الجزء الأسفل للقذائف النارية «الخرطوش» فيذيبه ويصهره ويصنع منه السكاكين والأدوات الأخرى وكل ما يحتاجون إليه. أمّا الصائغ فيصنع الحلي لنسائهم من أساور وخواتم وغير ذلك وقد ابتاع نزيه بك شيئًا من مصنوعاته وجاء بها.

ولا أثر للفواكه والخضروات والثمار والبقول عندهم، وهم يزرعون الذرة والقمح والشعير والسمسم ويسمونه (جلجل) وأكثر ما يأكلون اللحم، ولا يزيد ثمن الخروف الواحد عندهم عن ٢٠ قرشًا مصريًا.

* * * * *

ومن أغرب حوادث هذه الرحلة الحادثة الآتية، وخلاصتها أنّه طلب من العامل أن يصدّق له على طابع البريد اليماني الذي ألصقه على «ظرف» خاص لعدم وجود مكتب للبريد، فكتب العامل على الظرف بأنّه يشهد أنّ نزيه بك المؤيد زار مأرب، وأنه صدّق له على هذا الظرف بالنيابة عن عامل البريد، ولما وصل إلى صنعاء عائدًا من رحلته طلب من الإمام أن يصدّق له على تصديق العامل فأجابه إلى طلبه وصدّق له وهو يحمل الظرف معه.

* * * * *

وقاس نزيه بك أبعاد السد وطوله وارتفاعه، وأخذ له عدة رسوم فوتوغرافية كما أخذ رسومًا للنقوش التي وجدها، وأخذ رسومًا أخرى لسور

مدينة مأرب -ولا يزال قائمًا-.

ورسم أيضًا المعبد القائم في وسط المدينة، وهو ذو شكل دائري لم تبق سوى رسومه، ويسميه السكان (محرم بلقيس)، ويسميه آخرون (هيكل سليمان).

* * * * *

أمّا السدّ فهو خارج المدينة ويبعد عنها نحو ٣٠ كيلو مترًا، وقد أقيم في الأصل لحمايته من السيول التي تتجمع في جبال اليمن الشرقية والغربية والشمالية، ثم تتدفق إلى السهل الذي تقع فيه المدينة.

وحالة السدّ وحالة مدينة مأرب لا تزال على ما وصفها القرآن الكريم.

* * * * *

وأرسل نزيه بك كتابًا إلى معالي سعيد باشا ذي الفقار بعد رجوعه من رحلته إلى مأرب يصف فيه بعض ما شاهده، ويقترح أن يضع رحلته تحت الرعاية الملكية السامية فأرسل إليه معاليه كتابًا رقيقًا.

* * * * *

وقد وضع كتابًا مفصلاً عن رحلته إلى مأرب ضمّنه كثيرًا من التفصيلات والرسوم والنقوش، وسيمثله قريبًا للطبع فيكون من أَنفس الكتب التاريخية، كما أنّ الرحلة التي رحلها من أفضل الرحلات العلمية، فقد أدّى بها للعلم والتاريخ أعظم الخدمات، وأتى بما لم يستطع غيره الإتيان به من الذين ارتادوا تلك البلاد حتى الآن فسجّل اسمه في الخالدين.

❑ سياحة في حضرموت[١] ❑

قبر نبي الله هود

من كتاب Hadramaut, Some of its Mysteries Unveiled
تأليف فان در ميولين VAN DER MEULEN

عن مرّة بن عمر الأيلي، عن الأصبح بن نباتة قال: كنّا جلوسًا عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، إذ أقبل رجل حضرمي من بلاد حضرموت، لم أر أطول منه، فاستشرفه الناس وراعهم منظره، وأقبل مسرعًا حتى وقف وسلّم وجاء ثم جلس، فكثر أدناه الناس[٢] منه مجلسًا فقال: من عميدكم؟ فأشاروا إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فقال أهذا ابن عم رسول الله (ﷺ) وعالم الناس المأخوذ عنه؟ قيل: نعم، فقال الحضرمي:

أبلغ[٣] كلامي هداك الله من هاد
وافرج بعلمك عن ذي غلة صاد
جلب[٤] التنائف من وادي سكاك[٥] إلى
ذات الأماحل من بطحاء أجياد

(١) مجلة الرابطة العربية العدد ٣٤، السنة الأولى، المجلد الثاني، ٧ ذي القعدة هـ/ ٢٠ يناير ١٩٣٧م، ص٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٣٧.
(٢) العبارة ليست واضحة، العبارة كما وردت (فكَلَّم أدنى القوم منه مجلسًا).
(٣) وردت اسمع.
(٤) هي جاب.
(٥) واد بحضرموت ويظهر أنه نسبة إلى السكاسك بطن من كندة.

تلفه الدمنة البوغاء[١] معتمدًا
إلى السداد وتعليم بإرشاد
سمعت بالدين دين الحق جاء به
محمد وهو قرم الحضر والبادي
فجئت منتقلاً من دين باغية
ومن عبادة أوثان وأنداد
ومن ذبائح أعياد مضللة
نسيكها خائب ذو لوثة عاد
فادلل على القصد واجلُ الريب عن خلدي
بشرعةٍ ذات إيضاح وإرشاد
والمم بفضل هداك الله من شعثي
وأهدني إنّك المشهور بالنادي
إنّ الهداية للإسلام نائبة
عن العمى والتقى من خير أزواد
وليس يفرج ريب الكفر عن خلدٍ
أفظه الجهل ألا حية الوادي[٢]

قال فأعجب علي بشعره وقال له: لله درك ما أرصن شعرك! فمن أنت؟ قال أنا من حضرموت، قال فسرّ به -عليه السلام- وعرض عليه الإسلام فأسلم على يديه، ثم أتى عليًا -عليه السلام- يسأله ذات يوم ونحن

(١) ما ثار من الغبار ودقاق التراب.
(٢) حية الوادي، تقال للرجل الذي يحمي كل ما يملك.

مجتمعون للحديث، فقال: أعالم أنت بحضرموت؟ قال: إذا جهلتها فما أعلم غيرها، قال أتعرف موضع الأحقاف؟ قال: كأنك تسأل عن قبر هود، قال علي: لله درك ما أخطأت، قال نعم. خرجت وأنا في عنفوان الشباب في أغلمة من الحي، ونحن نريد أن نأتي قبره لبعد صوته فينا وكثرة من ينكره، فسرنا في وادي الأحقاف أيامًا، وفينا رجل قد عرف الموضع حتى انتهينا إلى كثيب أحمر، فيه كهوف مشرفة، فانتهى بنا ذلك الرجل إلى كهف منها، فدخلناه فأمعنا فيه فانتهينا إلى حجرين، قد أطبق أحدهما دون الآخر وبينهما خلل يدخل فيها النحيف متجانفًا، فدخلته فرأيت رجلاً على سرير، شديد الأدمة، طويل الوجه، كث اللحية، قد يبس على سريره، وإذا مسست شيئًا من جسده أصبته صلبًا لم يتغير، ورأيت عند رأسه كتابًا بالعربية (أنا هود الذي آمنت بالله وأسفت على عاد وكفرها، وما كان لأمر الله من مرد).

هذه رواية الأثر، وقد تناقلتها بعض كتب السير، ويراها بعضهم موضوعة، ولا تخلو في كل حال من الخلط والتشويه.

أمّا قبر النبي هود فهو في حضرموت باتفاق؛ ولأنه أرسل إلى أقوام عاد وهم سكان حضرموت قديمًا، وقد زاره السيد "فان در ميولين" مبعوث الحكومة الهولندية إلى حضرموت سنة ١٩٣١م وقنصلها بجدة سابقًا فكتب عنه وعن إقليمه فصلاً ممتعًا استحسنا ترجمته لفائدته وطلاوته.

قال: كانت الساعة الخامسة من صباح أول سبتمبر سنة ١٩٣١م عندما استيقظنا صباحًا وتحركت القافلة من بلدة (السوم) التي كانت على وشك النهوض من سباتٍ عميق، وفي هذه البلاد يجب النهوض من النوم قبل

بزوغ الشمس؛ لأنّهم لا ينامون إلا في الهواء الطلق على سطوح المنازل، وقد استطعنا أن نرسل أنظارنا من السطح الذي بتنا فيه على الأسطح الممتدة حوالينا فرأينا الحياة قد دبّت في أجسام النيام فتحركوا مكرهين، وانحدروا واحدًا بعد واحد إلى أجنحة البيوت؛ ليأخذوا لهم رشفات من القهوة المشعشعة بأعراق الزنجبيل!.

وهناك على حفافي تلك الرحبة العريضة المترعة بالماء تقوم أحراج النخيل، وقد انتهزنا الفرصة قبل الرحيل والاكتواء بحرِّ الشمس المحرقة فاغتسلنا كثيرًا من بئر قائمة.

وبعد رحيلنا بثلاث ساعات وصلنا إلى قرية (فغمة) وهي بليدة تحتوي على قليل من البيوت المبنية بالمدر وتحيط بها أكواخ، ولمّا كنّا في أول النهار، وكان الحرّ لافحًا فقد رغب إلينا رجال القافلة أن ننزل في هذا المكان للراحة؛ بحجة أنّه لا توجد أمامنا مدينة ولا ماء نطفي به حرقة العطش مدة خمس من الساعات، فرفضنا وأصررنا على مواصلة السير فرفضوا وحذرونا من هذا الجنون، ووعدنا بالراحة ساعة واحدة ثم مواصلة السير، فنزلنا على إرادتهم، وخضعنا لأمرهم، ثم ابتاعوا لنا (طليًا) وأعدوا أكلة شهية.

وقرية (فغمة) هي آخر محطة إلى قبر نبي الله هود، ولا تزال تنتظرنا أربع ساعات تقضيها سيرًا في أرض جرداء حتى نصل إلى الأمل المنشود!.

وتحركت القافلة عند الساعة الثانية بعد الظهر بصعوبة شديدة وانحدرنا إلى بطن الوادي فوجدنا الماء غزيرًا وهو من مخلفات السيول التي تندفع من

الجبال الغربية، وفي هذه الرحاب ومن هذا المكان يتكون النهر الحقيقي، وقد شاهده رجال الطيران الإنكليزية فرأوا نهرًا جاريًا في عرض الوادي خلف قبر هود يأخذ في الاختفاء والاندغام تحت سطح الأرض قبل أن يقذف بنفسه في أحضان البحر العربي!.

وعلى مقربة من (فغمة) مررنا بأحراج من النخيل، وحواليها حفنة من الأكواخ تشهد ببؤس السكان، وهذا المكان مزار لأحد الأولياء تفد إليه جموع البدو من البلاد المجاورة في كل سنة، فيخصصون جزءًا خالصًا لله والتجارة، ومن حسن الحظ أنّنا وصلنا يوم الزيارة وعندما كنّا في (فغمة) كنّا نسمع طلقات الرصاص تدوّي في الجو وأهازيج الفرح تنبعث من كل مكان، وقد دعونا للنزول عندهم فيهيئون لنا قرىً فاعتذرنا؛ لأنّنا نعلم أنّ صداقة مثل هؤلاء المغالين في التعصب الديني مسألة خطيرة وفضلنا متابعة السير.

وأخيرًا تراءت لنا من بعد القبة البيضاء الناصعة لقبر النبي هود والحدود المترامية حواليها، وهي قائمة على سفح حائط صخري مظلم، وقبل وصولنا بنصف ساعة أشرفنا على بناية من المدر مربعة الشكل قائمة على تلّ فسيح، ولمّا كانت القافلة تسير باتجاه آخر كان لزامًا علينا أن ننتظرها، وندخل شعب نبي الله معها، ونقضي ليلة في بيت قائم هناك.

وفي الصباح أعملنا المطي إلى الهدف المرموق وكلّنا شوق إلى الوصول إليه، والفضل في هذا عائد للسيد أبي بكر الكاف فهو الذي ذلّل لنا المصاعب حتى تمكنا الوصول إلى هذا الضريح المقدس الشهير في بلاد حضرموت

بصفتنا أول من زاره من المسيحيين! وفي أثناء سيرنا كانت الرحبة كالشريط الفضي، ناصعة البياض زاهية الأديم، وقد لاحظنا أن جوانبها من الطبقات الصلبة، بعيدة الغور بسبب فعل الماء واندفاع السيول، وعند أقدام هذه الجبال يمتد منظر عام يأخذ بالألباب، ويسحر القلوب، من الخضرة اليانعة، والتي تتألف من أشجار العِشَر[1] والراك (الأراك) والأثل!.

واستوقفنا هذا المنظر الفاتن وأدرنا أبصارنا نحو تلك البنايات البيضاء العجيبة الجاثمة عند مرمى النظر تجاه ذلك الجبل الصخري القائم، وهذه المدينة الصامتة التي تغصّ بالسكان ثلاثة من كلِّ سنة وفي شهر شعبان واقعة في مسيل من الأرض، وقد أعجبنا كثيرًا بهذا الإقليم الذي تناهت فتنته حتى لم نجد له صورة في أذهاننا تعبّر عن حقيقة، وهذه المدينة العظيمة بأبنيتها المتينة، وبيوتها البيضاء الأصلية التي يحافظ عليها، ويعنى بها العناية الزائدة ساحرة وجذابة، وقد كنّا نتوقع أن نراها عبارة عن مضارب وأكواخ مبعثرة.

أما الضريح فهو مركز ديني محترم عند الحضارمة، تفدُ إليه الجموع من شتى الأنحاء، وقد وُجد قبل الإسلام بقرون، وعلى قبته مسحة القدم بخلاف الأبنية التي حوله فإنها جديدة، والضريح في مكان عال يواجه الحائط الصخري للجبل، وهو منعزل عن بقية البيوت التي حوله، ويُخيّل إلينا أن هودًا كان رجلاً ضخمًا، فطول ضريحه يبلغ ١٢٠ قدمًا ويصح أن يكون هذا رمزًا لعظمته، والقبة قائمة فوق رأس النبي وهي مبنية على النظام

(١) شجر يشبه الأقحوان يفرز عصارة بيضاء.

الحضرمي الأصلي، في غايةٍ من الروعة والبساطة!.

دنونا من هذه البناية المقدسة بشيء من الحذر فلم يعترضنا أي معترض، وهكذا استطعنا أن نلج داخل القبة، ولحسن الحظ لم يوجد فيها أحد، غير أنّه يوجد على مقربة منّا (مسجد الناقة) وقد شاهدنا فيه الزوار يتلقون دروسًا عن حراس هذه المدينة الصامتة في كيفية تلاوة بعض أدعية خاصة، وكانت الأوراد تشقّ السكون في نبرات متزنة متوافقة، وكانوا يكرّرونها على نغمة واحدة تزداد ارتفاعًا بالتدريج!.

شاهدنا في وسط القبة بنية مستديرة كقاعدة لعمود سميك جدًا، وهي واقفة فوق صخرة ناتئة، عريضة ذات صدع عميق، ويظن أنّه المكان الذي انشقت فيه الصخرة بإرادة الله، فدخلها هود (عليه السلام) وبقيت هكذا مشروخة لم تلتئم، وقد صقلت حفافها على الخصوص بواسطة آلاف الأيدي التي مرّت عليها بلطف وبآلاف الشفاه التي لثمتها!.

ويرى الرائي هنا وهناك -على جوانب الجدران- آيات القران الخاصة بالنبي هود وأحاديث موضوعة تحضُّ على زيارة ضريحه.

ولمّا غادرنا هذه القبة واعتلينا أحد السطوح، تلفتنا إلى الوادي الذي جئنا منه، وكانت الشمس بدأت في الانحدار وغمرت ماء الرحبة الرحبة بأشعتها الذهبية فأكسبتها روعة وجلالاً، وكذا الأشجار والشجيرات القائمة على جوانب الرحبة بدت في ثوبٍ بنفسجي زاه، ثم انحدرنا عن الضريح المنعزل إلى فسيح من العارض تقوم فيه المدينة الصامتة، وهنا يوجد مسجد (الناقة) وهو عبارة عن بناء جديد، وقطعة عظيمة من الصخرة يقال: إنّها

الناقة المتحجرة التي بقيت من جانب الجبل القائم فوقها، وهناك بيوت ذات طبقات متعددة، والبناء في حدّ ذاته ينمّ عن بساطة، ولكنه مُحكم الأساس، متينُ التخطيط رائع التنسيق والنظام وقد تمكنّا من دخول أحد هذه البيوت وصعدنا إلى السطح فتراءت لنا قافلتنا عن بُعدٍ في وسط السراب!.

وانطرح بعض الرفاق على السطح ليرتاح قليلاً فقضينا شطرًا من الزمن لم نجد من يمدّنا بطعام ولا شراب، حتى أشرفنا على الهلاك من شدة العطش، غير أنّ أحد البدو تَعهّد لنا بالبحث لنا عن الماء، وآبار هذه المدينة الصامتة- مدينة الحجاج- غير صالحة للشرب، ولكن على مقربةٍ منها يوجد واد فيه ماء عذب يستقي منه الزائرون في أيام الزيارة، وهناك في وادي (برهوت) بئر عذبة أيضًا.

وتضايقنا من وطأة الحرّ الشديدة ومن طول الانتظار، ومرّت ساعة من الزمن والبدوي لم يعد وكنّا في حاجة ماسة إلى الماء، وتساءلنا هل ضَلّ البدوي الطريق؟! أم جفّتْ ماء جفت الآبار؟! كانت هذه الأفكار تشغلنا كثيرًا، وخفنا أن يلفنا الليل بردائه الحالك قبل أن نبلَّ ريقنا، وقد حاولت مرارًا أن أُطلق صوتي مستغيثًا، ولكني لم أستطيع لجفاف حلقي كما صار جسمي كالحمل الثقيل، فأجهدت نفسي، وبذلت ما في وسعي للهرب من هذا المكان المخيف!.

وبعد لأي، أقبل البدوي حاملاً قربة مترعة بالماء العذب، فألقيناها بيننا واتكأ كلّ منّا على ركبته يكرعُ منها، والماء يندفع بغزارة من فمها!.

وعلى ضوء القمر، في هدأة الليل كنّا نرى الرحبة تتألق كالمرآة

المصقولة أو كالشريط الفضي، وكانت الجلاميد الهائلة المبعثرة هنا وهناك الشاهدة على هلاك قوم عاد قائمة من قِدم الدهر تحوطها الرهبة والسكون.

دار العلوم - محمد عبدالله العمودي

❑ زيارة لمدينة لحج[١] ❑

مشاهدات وملاحظات

كان يوم الجمعة ١١ ربيع الأول سنة ١٣٥٦هـ يومًا أعد فيه المسلمون العدة للاحتفاء بليلة المولد النبوي، على صاحبه وآله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، ففكرت هنيهة واخترتُ أن أقضي اليوم في مدينة لحج بعيدًا عن غوغاء عدن وحركتها، وقلت: إنّ تلك المدينة ستكون اليوم مرتديةً ثوبًا قشيبًا؛ لأنّ اليوم جمعة ويوم الاحتفاء بالمولد النبوي، يممتُ نحو البراق صباح الجمعة، والبراق هو اسم لقصر صاحب العظمة سلطان لحج المعظم مولانا السلطان عبدالكريم فضل العبدلي حفظه الله، ذاك القصر المشيّد الواقع على ساحل صيرة بعدن، وهو آية من آيات الفن المعماري الحديث والذي لم يتمتع به صاحب العظمة السلطان وحده، بل جعله مقرًا لنزلائه وضيوفه من أهل الفضل والوجاهة، فقد زرت زعيم تونس الكبير السيد عبدالعزيز الثعالبي فيه، وصادفتُ أعضاء البعثة المصرية إلى الهند يتناولون القهوة عندما رستْ الباخرة بهم في عدن، ثم نزل فيه نجل الإمام يحيى سيف الإسلام الحسيني محفوفًا بالمحبة والإكرام يلاحظه بكل عناية وإخلاص الأمير النبيل فضل عبدالكريم نجل سلطان لحج المكرم.

هناك في البراق وجدت ضيفًا كريمًا من علية القوم في اليمن هو السيد عبدالله بن علي الوزير نجل صاحب السعادة أمير لواء تعز المشهور بالغيرة

(١) مجلة الرابطة العربية، الجزء٥٣، السنة الثانية، المجلد الثالث، ٣٠ ربيع الأول ١٣٥٦هـ/ ٩ يونيو ١٩٣٧م، ص٤٠-٤١.

الإسلامية، والوفاء، والمجد، والتواضع، وحسن المعاملة مع الناس، حتى أصبح يضرب بأخلاقه المثل بين الأمراء.

نعم وجدت الضيف الكريم هناك والأمير الشاب فضل عبدالكريم نجل سلطان لحج المعظم والقائم اليوم بأعمال السلطنة بالنيابة عن والده الذي سافر إلى لندن أخيرًا، يجاذب ضيفه أطراف الحديث ويدخل إلى قلبه السرور بعطف وحنان، مما يبشر بمستقبل بسّام، وكيف لا يمكن لهذا الأمير الشاب ذلك؟! وقد تحلّى بأخلاقٍ ولطف ووداعة مع حزم ولباقة قلَّ أن تتوفر في أميرٍ غيره في عنفوان شبابه.

واتفق الأميران الشابان -أي أمير لحج وأمير اليمن- على قضاء يوم الجمعة في لحج؛ ليصليا الجمعة ويشهدا مهرجان المولد النبوي، فوافق هذا الحديث هوىً في نفسي، وأردتُ أن أكون معهما لكن هل أتطفل؟ أو أصمت فتفوتني الفرصة، وما الذي يمنعني أن أكون حرًا طليقًا فأمتطي سيارتي وأسبق الركب أو ألتحق به؟.

ولاحظ الأمير فضل ذلك فالتفت إليَّ قائلاً: إنّنا نقترح أن تكون اليوم في صحبتنا وأن لا تفارقنا أبدًا، وصادق الأمير اليماني على ذلك؛ فشكرت للأميرين الفاضلين حسن نظرهما، وامتطينا السيارات إلى لحج مقر السلطنة العبدلية، والتي تبعد عن عدن بنحو ٢٤ ميلاً، فنزلنا في قصر السلطان العامر وبعدما استرحنا تهيأنا لصلاة الجمعة.

وقفتْ السيارة أمام القصر واصطف الحرس الملكي على حافتي الممر تتقدمهم ثلة من الجيش النظامي العبدلي، وفي أوائل الكل الجوقة الموسيقية

تعزف عزفًا شجيًا مؤثرًا، فسار الأميران في موكب فخم إلى الجامع الكبير أو الجامع الوحيد في لحج، وقد أسسه أخيرًا على أحدث طراز صاحب العظمة سلطان لحج المكرم السلطان عبدالكريم، وجعل عمارته مرتفعة القوائم على شكل هندسي بديع يشكر عليه (والله لا يضيع أجر المحسنين)، فجاء نزهة للناظرين، وجنانًا للركع السجود من المصلين.

وارتقى الخطيب المنبر وإنه لشيخٌ تبدو عليه سيما الصلاح والتقوى، إلا أنه لا يزال على الطريقة القديمة التي تشبَّث بها رجال الماضي.

لقد أحببت الخطيب لأول وهلة رأيته لما يلوح على وجهة من الوقار غير أنّي انكمشت حين رأيته يخطب من كتابٍ أكل الدهر عليه وشرب، مع أنّنا -والحمد لله- نسمع اليوم خطبًا عصرية من خطبائنا تُوافق روح العصر، فذكّرني بخطب دمشق، فقد خطب والفرنسيون يهاجمون دمشق ويحاصرونها، ويحاولون أن يدخلونها بالقوة والقسوة فقال لهم: إن مثل ذلك اليوم كان موت عثمان (رضي الله عنه)، وذكّر القوم بمقتل عثمان والقوم بحاجة إلى من يذكرهم بما يهمهم في تلك الساعة من حركات القوة التي كانت مُحدقةً بالبلاد.

نعم لقد اقتفى خطيب الجمعة بلحج خطيب دمشق، كيف لا وقد كان يُذكّر القوم بوفاة الرسول الأعظم، مع أنّ الأمة في فرح وبهجة عظيمين بمناسبة المولد النبوي، ولولا أن تدارك الأمر الشيخ محمد حسن زكريا الدمشقي -المدرس في مدرسة لحج، إذ قام بعد انقضاء صلاة الجمعة فألقى كلمة جميلة فيما يخص مولده (ﷺ)، وحثَّ الجميع على اقتفاء السنة

والعمل بها إلى آخره- لبقي في النفس ما فيها، وكنت أظن أنّي الوحيد الذي لم ترق في عينه تلك الخطبة حتى لاحظت في مقام الأمير الشاب السلطان فضل عبدالكريم عندما فرغنا من تناول الطعام أن خطيبنا الشيخ الوقور كان جالسًا القرفصاء بجانب الأمير، والحديث يدور همسًا بينهما بشأن الخطبة وعدم مناسبتها، فتأكدت أنّ الأمير حفظه الله لاحظ ما لاحظه الناس.

غادرنا الجامع وعدنا إلى مشاهدة الموكب كما بدأنا فكان جذّابًا، بل مظهرًا إسلاميًا يذكرنا بعصر الإسلام الذهبي، ثم غادرتُ القصر وذهبت أُسّرح الطرف في شوارع المدينة فكانت وجهتي صوب المستشفى، فوجدته يقوم بالحاجة الضرورية، فشكرت عناية السلطان بهذا المشروع الإنساني، وحبذا لو تؤلف لجنة من عِلْية القوم لجمع الزكاة فتنفق في توسع المستشفى، وجلب جرّاح ماهر، وفي توسيع المدرسة العلمية وجلب أساتذة آخرين من الخارج لها، وإرسال بعثة إلى العراق؛ لتعلّم شتى الفنون وفي مقدمتها الزراعة التي ترتكز عليها حاصلات البلاد.

فلحج بلدة زراعية صالحة التربة، وقد نشطت الزراعة فيها نشاطا باهرًا بهمة عاهلها السلطان عبدالكريم الذي لم يدّخر وسعًا في ترقيتها من الوجهة الزراعية والتجارية والعمرانية، وقد كنت جذلاً مسرورًا برؤية الأزهار والأنهار والحقول وهي ريّا الجنبات تدلُّ على عناية فائقة ويد عاملة، ولولا هذه الأرض لما تحصَّل سكان عدن على شيء من الخضروات والفواكه والطعام.

القضاء:

وفي لحج محكمة منظمة للفصل في قضايا الحقوق والجنايات على أسس الشرع الإسلامي برئاسة صاحب السعادة السلطان مهدي بن علي وبجانب المفتي والقاضي، وقد أدخل عليها تحسينات بصورة قانون أساسي للعمل فيها، كان من مقترحات ولي عهد السلطنة اللحجية الأمير فضل عبدالكريم، وكذلك أدخل سمو الأمير ولي العهد تحسينات أخرى في الجمارك والسجون، كما أصلح شؤونًا أخرى في ديوان السلطان تتعلق بأمور القبائل والسياسة والمعارف وغيرها.

الاحتفاء الليلي:

ولـمّـا آذنـت الـغـزالـة بـالـهـبـوط وأسـدل الـلـيـل سـتـوره، أنـيـرت الـبـلـدة وتصاعدت الأنوار من كل قصر وسطح، وكانت الليلة أشبه بنهارها بهرجة وضياء، لا سيما «الروضة» التي فاقت أنوارها أنوار المدينة، وتصاعدت الصواريخ النارية تشق طريقها في الفضاء بألوانها المتنوعة من حين إلى آخر، وهناك إلى حديقة الروضة الواسعة المحاطة بالأزهار الشذيّة توافد الناس وفي مقدمتهم الأمراء والوزراء والعلماء والأعيان وغيرهم زرافات ووحدانا، وقد صفّت لهم الكراسي لسماع قصة المولد النبوي على صاحبه وآله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، فتليت السيرة والبردة للبوصيري، وانتهى الاحتفال على أحسن حال.

أعاد الله هذا العيد على أهل لحج لنعود في الموسم القادم إلى تلك الديار الطيبة فنسمع قصة المولد تتلى ارتجالاً على أكمل صورة، وأجمل

صوت يشنف مسامعنا بها رجال المستقبل وشباب الوطن، وما ذلك على همّة أولياء الأمور ببعيد.

عدن - *صفي الدين*

❑ في مملكة سبأ[١] ❑

لا يوجد في البلاد العربية إقليم شغل أذهان المؤرخين واسترعى أنظارهم بعظمة ماضيه، وغموض تاريخه كهذه البقعة العربية السعيدة التي أسماها اليونان (Arabia Felixa)، وإذا أشرفت على تاريخ اليمن القديم من نوافذ التاريخ، وأردت أن تقض سويعات تعود بك القهقرى إلى تلك الأجيال السحيقة، فلن تجد سوى الأسفار الضخمة المتنوعة التي أظهرتها همم الغربيين، وتناولتها أقلامهم بالبحث والتعليق في شتى المناحي، ثم أترعوها بذلك الخيال الخصب الذي أضفى عليها بردًا فشيئًا من البهاء والرونق كاد يزحزحها عن دائرة الحقيقة!.

والخيال إذا انصب على حقيقة من الحقائق، وكان موضوعها خصبًا ممرعًا زهزهها وطلا لها بنداء الأسلوب القصصي ثم رفعها إلى آفاق النجوم!.

وهذه البلاد السبئية لها مفهوم خاص، ودلالة لدى الغربيين، وتقذف بتفكيرهم إلى فضاءات الخيال، ومجتلى الأساطير! فإذا قرعت هذه الكلمة طبلات آذانهم، تنبه العقل، وشعّ الخيال في أفقه، فمضى به يطوي مطاوي التاريخ، ومجاهل العصور، حتى يقف به على تلك الربا اليمنية التي يغشاها النور، وتصدح في جنباتها غرائب الطير، وهناك يستعرض سليمان بن داود مواكبه، وبساط الريح العجيب، ومناجم الذهب Ophir في التوراة أوفيرا، ثم بلقيس ملكة سبأ جاثمة في محرمها تستقبله كأنّها قرن الشمس!.

---

(١) مجلة الرابطة العربية الجزء ١٠٧، السنة الثالثة، المجلد الخامس، ٨ جمادى الأولى ١٣٥٧هـ/ ٦ يوليو ١٩٣٨م، ص٢٢، ٤٧.

هذه الصورة الشعرية الساحرة التي حفل بها تاريخ اليمن القديم[١]، كانت مادة خصبة لقرائح الغربيين فكتبوا عن بلاد سبأ كتابات ما كتب الأوائل ولا الأواخر مثلها، من حيث المادة، وعمق التفكير، والبحث العلمي الواسع المدى، ولكثرة ما خلعوا عليها من ألوان الخيال الزاهي، أضحت عبارة عن مزيج من الخرافة، ونسج محبوك من الأساطير، وهكذا الآن تذكر ملكة الجنوب، وسيدة سبأ، حتى يظن أنّها قصة من قصص ألف ليلة وليلة!.

وكتاب العالم العربي يدركون هذه الحقائق التاريخية لبلاد اليمن وأنّها قد كانت لها أيام وأيام، وصفحة مشرقة ناصعة البياض، ومجد يشدّ أطنابه إلى النجوم! فيتلمسون هذه الآثار في الأسفار، فلا يكاد الكاتب يعثر على شيء يطابق الصورة التاريخية، ويسألون كتب التاريخ العربي فتصمت ولا تحير جوابا!! وهذا لعمري ناتجٌ عن الغموض واللبس الذي يكتنف التاريخ العربي من وراء عصر الإسلام، فلا عجب أن نرى أقلام الكتاب تهاب الجولان في هذا الميدان، ويتحاشى المؤرخون التنفس الواسع في أجواء اليمن لانسداد مجال التعبير بانتقاء البرهان الواضح، والدليل الناطق وأولئك الآباء والأجداد، وأن يتركوا لنا أسفارًا مكتوبة مقروءة عن عظمة تاريخهم، فقد تركوا لنا هذه الآثار الشاخصة الزاخرة بها سهول اليمن، وهضاب حضرموت، وما هي إلا كتب بدون أسطر تقرأ ولكن لا على ورق، وإنّما على ركامٍ من الأحجار والصخور والأعمدة والمدن المندمجة في أجواف الأرض!.

(١) أما تاريخه الحديث فسيتمخض عن مولود جديد يكون شرًا مستطيرًا على هذه البلاد إلى أبد الآبدين، إذا لم ينتبه جلالة الإمام!.

أدرك الغربيون شأن تاريخ البلاد، ونحن نيام، فسيّروا البعثات ووالوا الحملات منذ ثلاثة قرون وكتبوا عن اليمن وحضرموت كتابات جديرة بالاهتمام، ولولا ما صادفهم من عراقيل وصعاب لكانت جولاتهم أحفل وكتاباتهم أروع، وما زالت بعثاتهم على هذه البلاد يتلمسون مجدنا القديم في مظانه: في شناخب الجبال، وبطون الأرض، وأعماق المغاور، يتناولونه ويودعونه متاحفهم!.

وآخر هذه البعثات بعثة نسائية إنكليزية إلى حضرموت (بقيادة) السائحة الإنكليزية الشهيرة "فريا ستارك".

ولقد (ساحت) هذه السيدة في حضرموت من ثلاث سنين أخرجت كتابًا ضخمًا عن مشاهداتها[١]، ومازالت شهوة البحث العلمي متأججة في نفسها، حتى قُدّر لها العودة إلى حضرموت مع رفيقات لها موفدات من قبل جمعية آسيا الوسطى الملكية، لتجوس خلال الخرائب والمخارم، تستوحي الآثار، وتستنطق الأحجار، فتبرز للوجود مجهودًا علميًا أو استعماريًا معًا، وقد أفادت الأخبار بأنّها كشفت عن آثار هامة حوالي شبوة، خلّفتها مملكة اليمن القديمة، كما وقفت على بقاع من البترول غزيرة، من أجلها وضع الإنكليز أيديهم على هذه البلاد، وضربوا تعهداتهم مع الإمام عرض الحائط، وتفيد الأنباء أنّ الخلاف مستحكمٌ، ولم يكن بودّي التنفس الواسع في آفاق التاريخ اليمني؛ فما لهذا كتبت؛ لأن الدخول في موضوع كهذا يستدعي وقتًا طويلاً، ولا تزهو به إلا الأسفار، ولكن شيئًا من هذا أثار في نفسي الشوق لتناول هذا الموضوع بكلمة وجيزة، فقد وقفت -ويا ما وقفت- على رسالة صغيرة خطيرة

(١) The Southern gates of Arabia.

الشأن نشرها الأستاذ "مرغليوث Margaliouth" المستشرق الإنكليزي الشهير بعنوان «نقشان من جنوب بلاد العرب»[١]؛ لأنّها تضم رسم حجرين خطرين وُجدا في بلاد اليمن ذكرت فيهما أسماء ممالك يمنية قديمة، ليس لها ذكر في كتب العرب كما وجدت تماثيل تمثل ملوك هذه الممالك، وهذان الحجران اللذان نقشت عليهما هذه الكتابات، هما جزء من مجموعة تماثيل في حوزة رجل (فارسي) بعدن، ويقول هذا الشخص: إن كلّ ما عنده منها ومن الأختام والحلي الذهبية وغيرها من القطع أتى بها إلى عدن من مكان يبعد عنها عشرين مرحلة.

وإنّي لأرجو من الرابطة الغراء أن تتكرم بإثبات هذه الصور، وهذين الحجرين على صفحاتها؛ ليعلم من لا يعلم قدر هذه البلاد، والكتابة كما ترى فيها ألفاظ من لغتنا الفصحى صريحة، وألفاظ أخرى مصبوبة على الطريقة الحميرية أو السبئية، وقد حوّلت الحرف الحميري إلى الحرف العربي فقط، مع بقاء المعنى الحميري الأصلي.

ترجمة الحروف:

(١) تبع كـ.

(٢) ن. دذهبن. دبهو. حمدم

(٣) شعن. مراهمو. الشرح. يحضب.

(٤) ملك. سبا. بثبر. ووضع. وحسنم.

(٥) تاتمو. ورتضحن. بيزرن. دحق.

---

(١) Two south Arabian Inseriptions.

(٦) هـ. تاولان. مراهمو. بوفيم.

(٧) ايهو. الشرح يحضب. واخيهو.

(٨) فرعم. ينهب. ملك. سبأ. تاولان.

(٩) بأي. وضبا. عدى. ارض. حميرم. وحض...

(١٠) اظلم. بن. زبنر. تاولان. ورفيم.

(١١) هو. الشرح. يحضب. واخيهو. يازل. بيد...

(١٢) ت. سبا. وبحض. بعم. اسد. وقهى. مراى.

(١٣)... اظلم. بن. زبنر. مهر.

(١) معمر، يصدقال. فـ...

(٢) رعم. شرحعت. بن. و

(٣) دل. ملك. اوسان. ولـ..

(٤) يحر. بدن. برثن. د.

(٥) ت.بن. وملات. والـ

(٦) زن. سو حزس. بن. بر.

(٧) ثن. لمعرم. بيظما.

(٨) علسوو. بن. املك. أو.

(٩) سان حج. وقه. ابس.

(١٠)... سم. بمسالس.

هذه صورة قديمة بسيطة تمثّل لنا دورًا من أدوار كانت فيه اللغة العربية -أيام كانت حميرية- على ما ترى من البساطة وعدم النضوج، والحميرية لا تزال إلى اليوم موجودة لدى بعض قاصية القبائل اليمنية، في بلاد مهرة

والمقاطعات الضاربة في أحشاء الربع الخالي!، وعدم وجود الشكل والحركات في هذه الألفاظ من أعقد الأمور، وأصعب الأشياء في حلّ رموزها، وفكّ طلاسمها، والوصول إلى ضبطها ونطقها على الوجه الصحيح! على أنّه ليس في الإمكان هنا رصف الكلمات في معنى صحيح؛ لأن أطراف هذه الأسطر، مقرّم مفتت، مع كل هذا في استطاعتنا أن نمر مرًا خفيفًا على هذه الأسطر فنلاحظ بعض الألفاظ التي يتراءى لنا فهمها، والأستاذ "مرجليوث" نفسه، أكمل ضائع هذه الأسطر من عنده بألفاظ بعضها مقبول، وبعضها غريق في الخيال!.

الحجر الأول:

في السطر الأول كلمة وحرف، ولا شكّ أنّه أول كلمة «كرب» فيكون: تبع كرب.

٢- «دذهبن» الدال في اللغة السريانية من علامة الإضافة وبمعنى الذي ولا بدّ أنّها كذلك في الحميرية، فتكون الكلمة «المذهب» صفة للكلمة السابقة أو بمعنى الذاهب، من ذهب بمعنى مشى «ذبهو» الذي به فالواو ومن علامة الإشباع في الحميرية «حمدم» بمعنى شكرًا، وزيادة الميم علامة للتنوين في الحميرية.

٣- «مراهمو» سيد، وكذلك هي في العبرية، والواو في العبرية أيضًا بدل هاء الغائب في العربية، فتكون الكلمة بمعنى "سيده".

«الشرح يحضب» اسم لملك من أشهر ملوك التبابعة، وهو باني قصر

غمدان، والأرجح فيه يحصب بالصاد المهملة، ويخصب اليوم من فمخاليف اليمن فيه وحدة ثمانون سدًا وإلى ذلك أشار الشاعر :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدًا تقذف الماء سائلا

وفي نهاية السطر الخامس كلمة «دحق»، ولا بدّ أنّها بمعنى وطئ، أي: داس، وتعرف لليوم في حضرموت بهذا المعنى.

وفي نهاية السطر السابع كلمة «واخيهو» أي وأخيه، فالواو كما قلنا علامة إشباع في الحميرية، وقد قرئ على هذه اللغة قوله تعالى: «ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا» سورة الفتح.

وفي السطر ٩ «عدى»، وقد تكون بمعنى عبر أو «اعتدى» أي غزا أرض حمير وحضرموت.

وفي السطر ١١ كلمة «يازل» وهي كما ترى علمًا، وبهذه المناسبة نقول: البلاد اليمنية مدنها ومخاليفها سميت بأسماء ملوكها الأقدمين... أنّ «يازل» علم لملك، فهي.. قرية على طريق الحديدة - واقعة على شفا جرف تحتها واد عميق..

وبعد، فهذه ملاحظات.. وجدت على الحجر الأول، ولا نجزم بصحتها.

أمّا الحجر الثاني فلا يسترعي الانتباه فيه إلا السطر ٩ عند قوله: إنّ أوثان حجّ وأعطى (وقه) كذا وكذا...وقد قلنا: إنّ خلو الكلمات من الشكل حال دون فهم الألفاظ، ليت شعري هل (ابس) هو العجل أبيس، معبود المصريين القدماء؟ وبالأحرى هل كان أبيس يعبد ويحج إليه أولاً في بلاد اليمن، ثم أخذته معها القبائل التي انحدرت من بلاد اليمن واستقرت في

هذا الوادي وعبدته؟! نترك هذا للمستقبل عند ما يضرب أول معول في أرض اليمن لنبش آثارها!.

وهذان الحجران مع التماثيل ليس إلا نموذجًا واحدًا من مئات الآثار التي وجدت في بلاد اليمن، بل إنّك لو أشرفت اليوم على متاحف روما، وباريس، وبرلين، ولندن، وفيينا؛ لتوهجتْ أمام ناظريك آثار المجد العربي القديم تشكو الغربة وظلم الأحفاد!!. فـ"إدوارد غلازر" الألماني الذي ساح فيها مرارًا نقل منها ألف نقش بينها نقوش ذات قيمة تاريخية، و"أرنولد" الفرنساوي اخترق اليمن وعاد ومعه (٥٦) نقشًا مغطاة بالكتابة الحميرية، نقلها من صنعاء، والخريبة، ومحرم بلقيس، وجاء بعد ذلك يوسف هاليفي اليهودي، واكتشف مدينتي معين وبراقش بجوف اليمن، وبلغ مأرب ورجع معه (٦٨٠) نقشًا فيها العجاب!.

وخلّنا نذهب بعيدًا! وبالأمس أهدى سيد اليمن إلى ملك الإنكليز بمناسبة تتويجه رأسًا برونزية لرجل يمني، من رآها -وقلبه ينبض بمجد الأجداد- لا يسعه إلا أن يقف أمامها حائرًا مبهوتًا؛ لدقة الصنع، وجمال الفن وقيمتها التاريخية.

أمّا المؤلفات التي كتبت عن اليمن فأجلُّ مِن أن تُحصى، بعضها كتب بقلم التاريخ ليس للخيال فيه أثر، وبعض السياح اكتفى بنظرة خاطفة على آفاق اليمن المجلوة، ورجع إلى بلاده، وقد تفتق خياله عن سفر ضخم، وبعضهم جاس ديار اليمن فسحرتهم الطبيعة، فطلوا أبحاثهم التاريخية بطلاء الشاعرية والخيال، فجاء مجهودهم تحفة فنية رائعة من هؤلاء "رنتزومانزوني Renzo Manzoni" وهو إيطالي ساح في اليمن، وأقام بها ثلاث سنين

من سنة ١٨٧٧-١٨٨٠م، وألّف في ذلك كتابًا بالإيطالية[١] بالغًا حدّ الإتقان حلاه بصورٍ رائعة، كأنه ابتدعها بريشة "ليوناردو دافنشي" ولعمري -ويا ليت قومي يعلمون- إنّ هذا الكتاب، وكتابًا آخر صدر بعنوان «في قلب بلاد العرب السعيدة»[٢] بمناسبة زيارة حاكم إريترية "غاسباريني" لعقد معاهدة مع الإمام، هما من أعظم العوامل التي تحرك نفس "موسوليني" لقضم اليمن!.

وجاء هذا الطلياني إنكليزي هو "ولتر هاريس Watter Harris" راد اليمن وطبع رحلته[٣]، وزينها برسوم مفصلة، وكتبها كتابة شاعر حركت نفسه عظمة الجبال، وجمال الأودية، اسمع إليه يقول من فصل: «فيالك من بلاد أيّتها اليمن الساحرة! أي مجلدات من التواريخ لا تزالين تكتمين عن علمنا وبصائرنا في أوديتك العظيمة، وإسناد جبالك الشامخة، وأيّة قصص كان ويكون في أمكنة جداولك الصافية المتكسرة تقصينها علينا، من لا يعلم أنّ ماءك الزلال كثيرًا ما جرى أحمر بما مازجه من دم المهج والأكباد».

هذه بلاد اليمن أيّها العرب بماضيها الزاهي البعيد، تحوطها هالة من روعة التاريخ المجيد! هي مفخرتكم فيها نشأت الحضارات، وازينت رباها بالجنان ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ ومنها انطلق الأقيال العباهلة يوغلون في الأرض، ويفتحون البلاد، ثم هي أصلكم فيها ترعرعت الدوحة

---

(١) Tre anni nell arabia felice.

(٢) Nel course dell Arabia felice وهذا الكتاب سنعرض له قريبًا؛ لأن أنفاس الاستعمار حارة فيه.

(٣) A Journey through the Yemen.

القحطانية العظيمة، فضربت بفروعها هضاب نجد، وسواد العراق، ومشارف الشام، وعداوات الشمال الإفريقي فكان العرب!.

هذه البلاد يسمع العالم غطيطها اليوم فهي لا تستيقظ إلا على روعة تمزق أوصالها، وتقذف بها إلى جهنم الاستعمار!.

فهل لهذا الليل من آخر يا مولانا الإمام؟.

وإذا نظرت إلى البلاد وجدتها تشقى كما يشقى العباد وتسعد

دار العلوم - محمد بن عبدالله العمودي

❑ من مصر إلى اليمن ❑

جولة في ثغر الحديدة

أساليب الطليان في استمالة اليمانيين[١]

قصتي:

. . . على شاطئ البحر الأحمر -أمام ميناء الحديدة- رست بنا باخرة إيطالية أقلتنا من مرافئ مصر إلى اليمن، وكنت أنا الوحيد في تلك الباخرة من القطر اليماني، وقد لاحظت مدة سفري في البحر عناية كبيرة من موظفي الباخرة كبيرهم وصغيرهم، وكان لي (امتياز) خاص على إخواني المسلمين والعرب في تلك الباخرة، فكنت أخجل من ذلك في بعض المواقف؛ لأنّني أصبحت (معظمًا) عليهم مع أنّه لا يوجد تفاضل بيننا عندما كنّا على. . . . فدهش أصحابي ودهشت معهم للرقي السريع وهذه الظاهرة الغريبة، وكنت أجهل الغاية من حسن المعاملة هذه نحو شخصي، ولم أتمكن من حمل هذه العناية على حسن نية الطليان، شممتُ من ورائها رائحة العرض، ولكني عزمت على الصبر وانتظار النتيجة المطلوبة من هذا التملق الكاذب، وكان يلذُّ لي في صباح كل يوم أن أتمشى في أطراف الباخرة؛ لأشاهد عجائب المخلوقات في البحر، وأمتع نفسي برؤية أطراف الجبال القريبة من البحر، فكان موظفو الباخرة يوزعون عليَّ ابتسامات (مصطنعة) متكلفة -كلمّا مررت

(١) مجلة الرابطة العربية الجزء ١٢٥، السنة الثالثة، المجلد الخامس، ١٧ رمضان ١٣٥٧هـ/ ٩ نوفمبر ١٩٣٨م، ص٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦.

أمامهم أو مرُّوا أمامي- وكان يصعب عليَّ أحيانًا تفسير هذه الابتسامات الخبيثة.

وفي صباح أحد الأيام بينما كنت في مقدم الباخرة جاءني كاتبها، وبعد أن جاملني قال: إنّ قائد السفينة يدعوك، فعجبت من هذه الدعوة، وتواردت إلى فكري شتى المعاني، وأول ما بدر إلى ذهني أنّ المجاملة والامتياز اللذين حظيت بهما ستظهر نتيجتهما اليوم، ولم أشأ أن أسأله عما يريد، بل أسرعت إليه جريًا على حكمتنا القائلة: «أجب الداعي ولو للمطامع» وما كدت أدخل عليه في غرفته حتى خفَّ لمصافحتي فأخجلني هذا التواضع، ومن حسن حظي أنّه كان يجيد اللغة الفرنسية التي أستطيع التفاهم بها، وبعد أن أخذت مكاني، وتناولت شيئًا من الحليب والحلوى أخذ يسألني عن حالتي، ثم عن اليمن وأحوالها وشؤونها، وكنت ألزم الاحتراز في جميع أجوبتي.

وبعد هذه المقدمة من الأسئلة والأجوبة قال: «نحن نعطف على اليمن ونودّ له مستقبلاً حسنًا، لهذا تجدنا مرتبطين معه بمعاهدة صداقة تجارية، وعندما قرب انتهاؤها في سنة **١٩٣٧**م بذلنا جهودًا كبيرة لتجديدها وتمديد أجلها، وهذا دليل على حبنا لليمن واحترامه»، وكاد يعتريني الدوار من كلامه هذا؛ لأنّه مأخوذ من نغمة "موسوليني" ووزير خارجيته الكونت "شيانو"، ثم إنّك لتجد النوايا الاستعمارية متسترة وراء كل كلمة من هذه الجملة، وقد عرف أنّه لم يعجبني كلامه، وإنّني فهمت مرماه، غير أنّني لم أكبح جماح نفسي فقلت له: «إنّ اليمن حكومة مستقلة محترمة، وليست محتاجة لاحترامكم، وكيف يتفق هذا الاحترام مع بث سمومكم في اليمن،

وسعيكم لإبعاده عن الحضارة والعمران لتكون لكم حجة..» فدهش من هذه الصراحة، وقال: «إنّ لنا أعداء كثيرين يقومون بنشر الدعاية ضدنا، وتأكد إنّنا نحترم اليمن» فأجبته: «إنّ موقفكم إزاء طرابلس برقة معروف فكيف نثق بكم؟»، فأراد مغالطتي وأن يثبت صدق ولائهم لليمن، فقال: «والدليل على إنّنا نحب اليمن واليمانيين أنّه ما من يمانٍ يمر من بلادنا أو يركب سفننا إلا احترمناه وأكرمناه...» وأخذ يعدد لي بعض أسماء رجالات اليمن الذين أكرموهم وقدموا لهم الهدايا، ثم قال: «هل تعرف فلانًا وفلانًا و..؟ إنّهم عندما مروا من عندنا أهديناهم نقودًا ذهبية، ولم نقبل منهم أجرة ركوب الباخرة، كما أنّي أرجوك أن تقبل هذه الثلاثين جنيهًا؛ كهدية مع قبول أجرة سفرك، أبعد هذا دليل على احترامنا لليمن!؟ (لا. لا) فصحت في وجهه قائلاً: «لا حاجة لي في هديتكم هذه، وإنّ قبولها خيانة وطنية كبرى، وهل تقبل أنت أن يعطيك رجل إنكليزي هذه النقود كهدية، وأنت تتأكد أنّ للإنكليز مطامع في بلادك؟» فاحمرت وجنتاه وندم على فلتته، وأراد أن يسترضيني، ولكني لم أمهله فودعته وانصرفت ودمي يفور من الغضب.

وفي اليوم التالي رست الباخرة وظهرت الحديدة فابتهجت لمغادرتي هذه الباخرة الاستعمارية وحشدت أمتعتي استعدادًا للنزول، وعند نزولي أراد قائد الباخرة أن يودعني ويبلغ في مجاملتي ليمحو تلك الصورة الاستعمارية التي رسمها في دماغي فحاول عبثًا.

هذه قصتي أكشفها ليطلع كل مسلم وعربي على الخطط والأساليب التي يتخذها المستعمرون وسيلة لاصطيادنا وعسى أن تأخذ اليمن حذرها.

في الحديدة:

نزلت إلى الحديدة وأنا متعطشٌ جدًا لرؤيتها ورؤية المشروعات الجديدة التي أحدثتها الحكومة اليمانية، ولا سيما أنّه مضت عليّ عشر سنوات وأنا بعيد عنها خاصة وهي ميناء اليمن الهام الذي يستقبل كل زائر. كل هذه الأفكار كانت تزدحم في نفسي فتملؤها أملاً وسرورًا.

ومن البديهي أن أول شيء يراه النازل إلى الميناء هو إدارة الميناء والمباني القريبة من السواحل، وقد رأيت ذلك فلم ترتح نفسي إليها، ولا سيما معاملة إدارة الميناء وعدم مقدرة القائم بهذه الإدارة ويكفي أنّه رجل أميّ، وأول ما يلفت نظر الغريب في ميناء الحديدة فقدان الزوارق التجارية لنزول الركاب، بل هناك قوارب شراعية تحتاج إلى وقت طويل للذهاب والإياب لنقل الركاب والبضائع من الباخرة، ولا سيما أن ميناء الحديدة غير طبيعي فلا تستطيع السفن أن تقف بقرب المدينة كسائر الموانئ الطبيعية بل تبتعد كثيرًا، وإذا أراد الراكب النزول إلى الحديدة فلا بدّ له من أن يحمل على أكتاف عمال البحر (الأخدام) في كرسي من الخشب والليف كما تحمل البضاعة، وهذا من عدم تنظيم الميناء والاعتناء به، وفقدان وسائط للنقل تخص الحكومة اليمانية -كما ترى- هي وسائط النقل الابتدائية في القرن الأول عند المتوحشين من البشر.

نعم هذه الصورة الأولى التي وقع عليها نظري لم تضعف أملي الذي كان يشرق في نفسي، بل تريثت في الحكم حتى أتغلغل في المدينة وأحكم بعدئذ، وهكذا كان فقد تجولتُ في المدينة وزرت المعاهد التي من الضروري مشاهدتها ولا أخفي عليك أن آمالي التي كنت نسجتها قد تمزقت

وتبعثرت، ولم أجد في هذه المدينة العظيمة ما يرتاح له الضمير يخلد ذكر الحكومة القائمة الآن في اليمن من الآثار.

وإلى القارئ نبذة صغيرة عن كل مشاهداتي في الحديدة:

الطرق العامة والشوارع:

تكاد تكون الكلمة الأولى من هذا العنوان غريبة ليس عن الحديدة فحسب، بل في عموم اليمن، فالطرق العامة لا وجود لها البتة، ولم هذه الطرق والسيارات غير موجودة؟ ما عدا عدد ضئيل منها موجود عند الحكومة، وأما شوارع الحديدة فهي ضيقة غير منظمة ولا مزفتة وهي تشبه شوارع جدة، ولا توجد بلدية تنظم الطرق وتوسعها وتقيم الحدائق حولها كما هو معروف في مصر وبقية الأقطار العربية الأخرى، بل جلّ ما هنالك عدد قليل من الخدام يقومون برش بعضٍ منها بالماء صباحًا، وهذا لا يغني؛ لأنّ الحديدة في سهل رملي إذا هبّت الرياح تغطي أرضها بطبقة ثخينة من الرمل في أوساخها، والواجب على الحكومة أن تعتني بتنظيم الطرق وفتح طرق عامة مع غرس الأشجار في أنحاء مختلفة وإنشاء عدة حدائق صغيرة حول الطرقات لتتحسن صحة الأهلين، وتقل الأمراض الفتاكة، وليس هذا العمل تفضّلاً من الحكومة، بل إنّه من أوجب الواجبات عليها؛ لأنّها وكيلة الشعب، والوكيل يجب عليه الوفاء لموكله، ثم أنّ فكرة الحكومة المبنية على أخذ الضرائب من الأمة بدون أن تردها لصالحها خطأ، ولا يقول بهذه الفكرة أي إنسان.

الكهرباء:

يقولون: إنّنا نعيش في عصر الكهرباء والنور، ونوافق من قال ذلك، ولكن لا يغرب عنهم أن هذا القول لا ينطبق على اليمن، فاليمانيون لا يزالون يعيشون في عصور متأخرة عن هذا العصر، بل هم في عصر الظلمة والنفط، مع أنّ غيرهم في بلادهم يعيش كما يعيش في أوربا، ولكن ماذا نقول للحكم الاستبدادي؟ إنّ البيوت في الحديدة تُضاء بمصابيح النفط وكذلك بعض الطرقات الضيقة، أمّا الباقي فلا ترى وميض هذه المصابيح (المسلولة) بل تبيت في الظلام الدامس في حفظ ربي، ولا أُخفي على صاحبي أنّ في الحديدة كهرباء! نعم كهرباء خاصة بالأجانب، فالشركة الروسية -سنأتي على ذكر الأجانب في الحديدة- عندها مولد كهربائي يضيء البيت والشركة، وكذلك بقية الشركات الأجنبية، فلست أدري كيف أنّ الحكومة اليمانية لا يأخذها العار من هذا التقصير الشنيع، مع أنّها ترى في بلادها هذه الجالية الصغيرة تقوم بمشروع الكهرباء لنفسها على الرغم من أنّها تجارية اقتصادية، وهذا المشروع لا يكلفها خسارة ولا يعطل خزينتها، بل يعود عليها بالأرباح الكثيرة ويسدّ نهمتها الشديدة للمال... علاوةً على قيامها بما يجب عليها نحو الشعب فتريحهم من ويلات النفط وعواقبه الوخيمة.

مشكلة الماء في الحديدة:

إنّ مياه الحديدة مالحة ولا يوجد الماء العذب إلا خارج المدينة بمسافة قليلة يأتي به السقاؤون على الحمير والجمال من موضع في شرقي الميناء يسمى (آبار الحالي) أي آبار الماء العذب وهم يبيعونه غاليًا، ومشكلة الماء

في الحديدة مشكلة عويصة؛ لقلّته وغلائه، وبما أنّ الحديدة حارة جدًا في الصيف، فحاجة الناس إلى الماء كثيرة، ومسألة الماء من المسائل الحيوية الهامة التي يجب على الحكومة القيام بها في مقدمة المشاريع الرئيسية، ومشروع الماء في الحديدة لا يكلف الحكومة مصاريف كثيرة؛ لأنّ الآبار قريبة ولا تحتاج إلا إلى إنشاء خزان عام للماء، ثم تمد القصبات إلى الآبار، ومن ثم تتفرع إلى البيوت بسهولة فتوفر على أبناء الوطن عناءً كبيرًا، ثم إنّ الأموال التي تصرف في أمثال هذه المشاريع تتقاضاها الحكومة فيما بعد من الأهالي، ويقال: إنّ الحكومة قد فكّرت في مثل هذا المشروع، فجلبت بعض أنابيب الماء ولكن هذه الفكرة ماتت.. وبقيت الأنابيب طعمة للصدأ حتى أصبحت غير صالحة للاستعمال، وقد مرّ على هذه الفكرة سبع سنوات تقريبًا، ومن هنا ترى أنّ الحكومة اليمانية تُسجّل على نفسها العجز عن القيام بأي مشروع بسيط، ونحن نأمل أن تسدل على عجزها السابق ثوب نشاطها الحاضر.

المستشفيات:

لا تكاد توجد حكومة في العالم مُقصّرة نحو شعبها كتقصير الحكومة اليمانية، فمدينة الحديدة بكبرها وأهميتها والتي يربو عدد نفوسها على الستين ألف نسمة لا يوجد فيها مستشفى واحد مطلقًا، وهذا إهمال وظلم لم يرد لنا التاريخ مثله، لا في العصور المظلمة الأولى ولا في العصور النيّرة الخيّرة، وبسبب هذا الإهمال تجد الأمراض بأنواعها منتشرة في كل ركن من أركان المدينة، وأبرز شيء يدهشك لأول وهلة هو رؤية العميان على شكل قطارات متسلسلة كل عشرة أو أقل يقود بعضهم بعضًا فيؤلفون

قطارًا من عمي العيون يتسلّلون في أنحاء المدينة، وكم من هذه المخازي التي تفتت الأكباد وتدمي الأفئدة.

يوجد في الحديدة بطولها وعرضها مستشفى واحد هو للحكومة وخاص بالموظفين والجنود، وليس مستشفى بالمعنى الصحيح بل هو كمستوصف كبير من مستوصفات الإسكندرية، وليست المعدات والأدوية فيه كاملة وجُلّ ما فيه بعض الأدوية الابتدائية التي تُوزع مجانًا في كل قطر من أقطار العالم، وقد زرتُ هذا المستشفى وسألتُ بعض المرضى عن راحتهم والعناية بهم فوجدتهم جميعًا متبرمين، يشكون ويبكون من عدم استكمال راحتهم، وعلاوة على كل هذا وذاك استمع ما يشكو الجندي! يهمس في أذني قائلاً: أنا جندي أخدم الإمام -ولم يقل الوطن- وأحارب إخواني المسلمين من أجله، وأجود بنفسي في سبيله - ولم يقل في سبيل الوطن- وإذا مرضتُ ودخلتُ المستشفى فإنهم يأخذون من راتبي زلطًا (أي نقودًا) كثيرة قيمة بعض الأدوية التي أصبحت مثل التراب، هذا ما يهمس به الجندي المتألم، ولو تعلمون كم راتب هذا الجندي المسكين الذي يشكو والعبرة تخنقه في كل لحظة إنّه ستة ريالات (أي نصف جنيه مصري) وهو لا يأخذه في نهاية الشهر كاملاً بل إنّ الحكومة تمدّ له منه شبكة ويد، فالكسوة منه، وأجرة المستشفى منه، -كما علمت- والرشوة منه، والجزاء منه، وحتى الطعام منه؟ فهل سمعتم أيها الثقلان أنّ جنديًا عندكم لم تقم الحكومة بإطعامه.

كلا! ولا. أيّها القائمون على الحكومة أخلصوا لأمتكم يخلصوا لكم، ويجزيكم الله أجركم مرتين.

وأيّها الشعب اليماني كن كالخيل إن خدمت خدمت، وإن ضربت شمست، من الذي لا تأخذه الحيرة والدهشة من هذه التعاسة والاستبداد، بل من الذي لا يصاب بالمس من جور هذه المعاملة، بينما عباد الله الآخرين تقوم الحكومة بكل لازم لهم فترى المستشفيات والمستوصفات مثلاً في كل طريق وفي كل صقع توزع الأدوية فيها مجانًا، ولا يعني هذا أنّها تصرف من خزانتها الخاصة بل إنّها تفي بالأمانة التي كلفتها الأمة، فالحكومة مجموعة من أفراد تنتخبهم الأمة منها وتضع ثقتها فيهم لينظموا شؤونها، ويُعنوا بأمورها، فالحكومات الأمينة تبرّ بما يجب عليها وتؤدي الأمانة، والحكومات التي لا يهمها إلا امتصاص الشعب مثل الحكومة اليمانية تسجل على نفسها الخيانة، ولو فكّر ملك اليمن قليلاً لعرف أنّه لولا الأمة لما وجد على كرسي الملك، إذن فالملك أوجدته الأمة ليخدمها لا لتخدمه، وعسى أن تهبّ الحكومة من غفلتها.

اليماني المتجول

❑ من مصر إلى اليمن[١] ❑

جولة في ثغر الحديدة

- ٢ -

يعيش أكثر السكان في الحديدة في بيوت من القش (الأكواخ) يسمونها العشش، وهذه معرضة لخطر الحريق، فأقل شرارة من النار تشعل القرية بكاملها، وتُكبّد السكان خسائر فادحة، وقد مات كثيرون، وكم من حوادث محزنة حصلت من الحريق؟! وعلى الرغم من تكرار حوادثه، ومن تواليها على الأهالي، وافتقارهم لحال طوارئها، فإنّ الحكومة اليمانية لا تأخذ حيطة فتشتري سيارات لإسعافهم عند حدوث الحريق بأسرع وقت، والظاهر أنّ هذا لم يخطر على بال الحكومة (المتوكلة)، كأن الأمر لا يمسها، أو كأنّها ترتكب جرمًا كبيرًا لو ابتاعتها لوقت البلاد كثيرًا من النكبات التي تحدث كل يوم.

وهذا البيان إذا شبت النيران بأحد البيوت ودبّت فيها كدبيب الماء لا تسمع إلا أصوات الاستغاثة تعالت حول ذلك الحادث، وأصداءً لا يرددها إلا فجوة، لكن وبعد ولولة عظيمة وصراخ ممزوج بأصوات الرجال الموحشة وبكاء النساء الرقيق وعويل الأطفال المحزن أقول بعد (الجوق) الذي يردد كلمة واحدة هي (أسعفونا)، ترى الناس يتقاطرون إلى جهة الحادث لإسعاف المنكوبين، وذلك بردم التراب على الناس، أو بقطع حبال

(١) مجلة الرابطة العربية، الجزء ١٢٥، السنة الثالثة، المجلد الخامس، ١٧ رمضان ١٣٥٧هـ/ ٩ نوفمبر ١٩٣٨م، ص٤١.

الأكواخ وهدمها على النار؛ لتنطفئ، كل هذا يجري والحكومة اليمانية (الإسلامية) لم تتخذ أي تدبير، حتى ولم تهيئ على الأقل عددًا من الجنود المدربين على الإطفاء بالماء والتراب، وهذا لا يكلفها -يا رب- خسارة تذكر؛ فالماء من بحرك الأحمر الطامئ، والتراب من رمال أرضك الواسعة التي تكرمت بها علينا، وبخل بها أولو أمرنا، فهذا هو موقف الحكومة من الشعب اليماني، وهذه فكرة الحكومة نحو شعبها تأخذ ولا تعطي، فليت شعري متى تعتبر الحكومة المتوكلة الأمة اليمانية من البشر فتعاملها معاملة البشر؟!.

تهافت الأجانب على التبرع:

بعدما تأكل النار بيوت الفقراء وتترك الأرض قيعانًا خالية كأنّها أطلال بالية تراهم حيارى مما حلَّ بهم، حيث لا مأوى يضمّهم ولا ملجأ يأويهم فيلجؤون إلى الواحات والرمضاء المحرقة، ولا شكّ أنّ هذه الحالة تجرح القلب وتوجب الرأفة والعطف، فيسرع أهل الخير من أبناء الوطن، ويمد يده لضمد جرحهم بما تيسر، أمّا الحكومة فيداها مغلولتان ولا تبسطها إلا للاستسلام فقط، وللاستسلام فقط.

وأمّا الأجانب - يا ابن عمي رعاك الله فحديثهم عجب - فتراهم يتنافسون في التبرعات؛ لإظهار عطفهم على المسلمين ومشاركتهم في نكبتهم، وفي هذا ما فيه من الخزي والعار على حكومتنا الإسلامية على العاقل، حيث يُقدم الأجانب (الغرباء) على مساعدتنا وهي واقفة متفرجة، وأيديها مكتوفة إلى عنقها، بل وفيه تأثير على سياستها، فإنّ هذا العطف من

الغرباء ليس صادرًا عن إخلاص وحب لنا، وإنّما أرادوا إظهار ولائهم وحبهم للناس، وليقال إنّ حكومة فلان.. (مخلصة لنا)، وبهذا يتمكنون من بذر الشرور في البلاد، والعين عنهم نائمة أو (متغافلة).

الكرم الاستعماري الإيطالي:

قالوا: «مصائب قوم عند قوم فوائد» لا فضّ فوك ولا عدمك أهلوك، أيّها القائل فإنّها قد تكون، ولكن هل تسمح لي أن أقول بعدك: حوادث الحريق في اليمن عند إيطاليا فرص، نعم -لا عدمتني أمي- ترى إيطاليا تنتظر الفرص، وتنتهز المناسبات؛ لتظهر كرمها الاستعماري -ومعاذ الله أن يكون حاتمي- ولتبرهن على (ولائها) لنا فإذا حدثت نكبة تجدها أول المسرعين إلى التبرع، وأول من يتظاهر بالعطف علينا ليمتدح الناس بعطفها ويقولون: إنّ إيطاليا تعطف على اليمانيين، ولا يدرون لجهلهم أنّ إيطاليا نفسها أحق بالعطف منّا فهي اليوم في أزمة اقتصادية كبيرة، بل تفكر في الاقتراض، وإنّما هذا التبرع لأغراضهم السياسية، وليسوا بمجانين حتى يضيعوا ذهبهم في اليمن بلا فائدة.. فلينتبه اليمانيون لهذا السم الذي يتجرعونه.

مدارس استعمارية بحتة:

كنت أريد أن أسلسل الجولة حسب ترتيبها، ولكن الحريق قام في وجه هذه السلسلة فقطعها، والآن أهلها فاقوا.

خرجت من المستشفى والقلب يدمع لسوء الحالة التي يلاقيها أبناء اليمن الجدباء -في هذا الوقت- ولعدم الالتفات لشؤونهم -نسيت أن أخبرك أنّ طبيب ذلك المستشفى إيطالي.. فاعذروني- يممتُ شطر المدرسة مؤملاً

أن تزول بعض همومي بانشراحي برؤية أفلاذ أكبادنا يتثقفون ويربون تربية حسنة، وبعد أن مكثت برهة في غرفة مدير المدرسة طلبتُ منه أن يطلعني على منهج المعارف الذي يدرسون عليه، فأجابني بلطف: إنّنا لا ندرس حسب منهج رسمي كما تتصوره أنت، أو كما هو معروف في المدارس المصرية أو العربية الأخرى، بل إنّ المعارف تعين بعض مختصرات الدروس، ونحن بدورنا ندرسها وهي كلها -كما سترى- لا تعادل إحدى الدروس في المدارس الحقيقية.

التلاميذ آلات ميكانيكية:

دخلت إلى الصفوف وأخذت بعض دروسهم، وسألت عددًا من التلاميذ فيها فوجدتهم لا يجيدون إلا حفظها عن ظهر قلب (حفظًا ميكانيكيًا)، ولكنهم لا يفهمون لها معنى، كأنّها قطعة من الحديد ابتلعوها ولم يستطيعوا هضمها، وهذا الأسلوب سقيم جدًا يقتل الذكاء وروح الفهم في التلاميذ، فيصبحون كالشالة الصماء، أو قل كالببغاء لا يفهمون إلا التقليد الأعمى، وبدا لي أنّ أسألهم عن جغرافية اليمن وموقعها وحاصلاتها وخطورتها، ولكن ما أشدّ دهشتي! عندما وجدتهم لا يعرفون عن اليمن شيئًا كأنّهم في أفريقيا، أو كأن البلاد التي يسكنوها هي غيرها، وجلّ ما يقرؤون من الجغرافية تعاريف بسيطة كتعريف البحر والمحيط والبحيرة والجبل والجزيرة وشبهها... إلخ.

وأمثال هذه التعاريف التي تدرس في المدارس الأولية أو الروضة، ولهذا لا عجب إذا بقيت أفكارهم جامدة محدودة لا يعرفون غير البيت الذي يعيشون فيه، ولا عجب إذا سمعت بعضهم يقول: الله يحفظ سيدي -

يقصد الإمام- قد ملك الأرض من شرقها إلى غربها، فتصور عقلية هذا القائل، وأمثاله يعدّون بالملايين الذي يعتقد أن لا دنيا ولا عالم، وأنّ الكرة الأرضية هي اليمن تشرق شمسها من صنعاء وتغرب في بحر الحديدة، وكذلك قل عن درس التاريخ فهم لا يدرسونه لا عن اليمن ولا عن غيره ويجهلون التاريخ النبوي والإسلامي كل الجهل، اللهم إلا وريقات صغيرة محشوة ببعض القصص التاريخية التي لا يفهمون منها شيئًا، فعرفت إنّها خطة استعمارية بحتة، وإن شئت فقل استبدادية فهما كلمتان مترادفتان، وإلا فلا مبرر يبرر فصل الأمة عن ماضيها، فاليمن معروفة بحضارتها القديمة ومجدها الغابر، ولكن إنّه لمن عمق الاستبداد أن يدرسهم تاريخ بلادهم وملوكها، ثم يتطرق إلى ذكر الملكة بلقيس مثلاً التي ذكرت قصتها في القرآن الكريم ويقرؤون بالمعاني قوله تعالى: (يا أيّها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون)، لو درسوا تاريخ هؤلاء الملوك الذين يحترمون الشعوب ويقيمون لهم وزنًا لما قبلوا هذا الحكم (الجبري)، ولكن الضغط يولد الانفجار.

أحلم أم حقيقة؟

لم أخرج من تلك المدرسة المتوكلية إلا وأنا في دهشة عظيمة لا توصف إذ إنّني في بلاد عربية إسلامية مستقلة، وهي في هذا الوضع المؤلم حتى لم أكد أصدق أنّها الحديدة، بل بقيت في جدال مع نفسي فهي تقول تأكد إنك والله في الحديدة، وأقول لها كلا إنّني في الحلم في إحدى المستعمرات الفرنسية أو الإيطالية أو غيرها، ولكنها صرخت في وجهي

بصوت أجش: تبارك[١] من جيبوتي وزرت مدارسها، وتعرفت بها ونشاط تلاميذها الصغار، لقلت: إنّ الاستعمار يقتل روح الأمة ويجعل بينها وبين التاريخ حاجزًا، عندما زرت الصومال الإيطالي ووجدت أنّهم لا يدرسون التاريخ ولا الدين الإسلامي، عند هذا أفقتُ من دهشتي والاستبداد والاستعمار والتاريخ على طرفي نقيض.

(١) غير مفهومة.

❑ من مصر إلى اليمن[1] ❑

جولة في ثغر الحديدة

- ٣ -

صورة موسوليني:

وفي ذلك اليوم دعاني بعض مشايخ القحرى لتناول الغداء معه، وكان بيته بظاهر المدينة فلبيتُ دعوته، ودخلت مربعة (غرفة كبيرة) حولها أكواخ كثيرة، وما كدت أدخل تلك المربعة حتى رأت عيني لوحة متوسطة غريبة ما كنت أتوقع رؤيتها وهي صورة "موسوليني" فبهت، ووقفت في مكاني، وكدت أخرّ مغشيًا، ولولا أنّه تداركني وأمسكني لوقعت.

وقد عجب من هذه المفاجأة، وبعد أن ملكت شعوري واسترحت من الدوار الذي اعتراني قلت له، وأنا متألم: ما هذا ياشيخ؟ وكيف يليق بك أن تعلق على رأسك هذه الصورة؟ فقال وهو يضحك: «لا، دا "موسوليني" نأخذه من الطليان ويهبون لنا بيس» أي: هذه صورة "موسوليني" يعطيها لنا الطليان مع فلوس فوقها، فقلت: وكيف تقبل بيس العدو؟ وهذا "موسوليني" يريد أن يستولي على بلادكم ويقتلكم وأولادكم، وما سمع مني هذا القول حتى علت وجهه إمارات الغضب، وقال أصحيح ما تقول؟ وبعد القسم بالأيمان المغلظات صدقني، وقام إلى الصورة فمزقها ورماها في النار.

---

(١) مجلة الرابطة العربية، الجزء ١٢٧، السنة الثالثة، المجلد السادس، ١ شوال ١٣٥٧هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٩٣٨م، ص٣٦-٣٧.

فاعجب أيّها القارئ إلى أي حدّ بلغت الدعاية الإيطالية، وقد استهزأ الشيخ بجهلي قائلاً: «أوه ده إلا واحدة أنت ما تحيد -أي ترى- في بيوت الناس أكثر منها».

وبعد أما آن لسيدي ومولاي شمس الشموس وملك الملوك الإمام يحيى أن يعدل عن هذه السياسة التي تنطبق على مثلنا اليماني المشهور: (من شق يدخل حمار ومن شق يقطم المسمار).

وبعد أما آن لسيدي ومولاي.. أن يرأف باليمانيين، ويعتبرهم كأمة من الأمم فيعطيهم حقوقهم قبل أن تنزل الداهية به وبهم وبوطنهم؟ وبعد أما آن له.. أن يختم هذا الدور الهزلي ويدخل في دور جديد جدي عملي؟.

الأجانب في الحديدة:

إنّ وجود الأجانب في بلاد ليس لها سياسة خارجية، ولا تعرف السياسة والمعاملة مع الدول إجحاف بحقوقها، فاليمن التي لا تزال متأخرة وضعيفة لا يفيدها وجود الأجانب، بل يضرّها وتتكاتف هذه الأقليات الغريبة على أكلها كما يتكاتف السوس على أكل العظام، ولا خير في الأجانب فهم الشر ويمتصون البلاد بخبرتهم، ومما زاد في الطين بلّة -الأهلين في الحديدة- تكالب الأمر على خيرات البلاد واستثمارهم وهم ينظرون، والمهم أنّ غاية الشركات الأجنبية سياسية استعمارية.. كما علمت من الشيخ القحري أنّ الشركات الأجنبية في الحديدة وهي:

الشركة الروسية: كان أول وفد تجاري روسي وصل اليمن في **٢٥** أغسطس سنة **١٩٢٨**م، وقد جاءها الوفد على باخرة روسية تحمل بضائع متنوعة، وكانت غايته أن يعقد معاهدة تجارية مع اليمن وقد نجح ذلك،

وبعد انعقادها أسسوا شركة أسموها «الشركة الروسية التجارية» ترأسها الخواجة "بلكين" مع ثلاثة أعضاء، وهي حكومية رسمية وتجارتها محصورة في بيع المنتجات الروسية كالكبريت، والدقيق، والسكر، والخشب، والبترول، والأقمشة الحريرية والقطنية وغيرها في اليمن، وشراء كميات كبيرة من البن اليماني، والجلود، وعلاوة على استغلال هذه الشركة للصادرات والواردات فإنّها تبث بعض الأفكار الشيوعية.

الشركة الإيطالية: هذه الشركة سياسية قبل كل شيء، وغايتها نشر الفساد في البلاد، وبث الدعاية الإيطالية بين جمهور الشعب الجاهل، وذلك بتوزيع النشرات والصحف الإيطالية الاستعمارية وصور رجال إيطاليا الاستعماريين، وهذه الشركة هي التي مهّدت الفرصة عند الحوادث، وتبذر التبرعات جيوب الأهالي؛ لتشتري سلاحهم وجهلهم وعلاوة على أعمالها الهدامة في البلاد فهي تقوم باحتكار البن والجلود، وتصدر الحبوب إلى سواحل أفريقيا مع بيع منتجات.

الشركة الإنكليزية: توجد جالية قليلة في الحديدة ومنها بعض رجال الإنكليز يقومون بإدارة شركة تجارية، وهذه الشركة سياسية أيضًا فهي مع المتاجرة بالبن، والجلود، وجلب المحصولات، تنافس التدخل الإيطالي في اليمن فهي كـ(قنصل إنكليزي) ينافس (قنصلاً إيطاليًا)، وهذا خير تعبير يقوم بإيضاح غاية الشركات.

الشركة اليونانية: وهذه هي الشركة الوحيدة التي يديرها شخص واحد وخالية من الأغراض السياسية وليس لها اتصال بحكومة - على ما نظن-

وتسمى شركة ليفراتو، وتجلب مواد من بلادها كالدخان، والصابون، وتتاجر بالبن اليماني فتصدره إلى أمريكا، وفرنسا، وإنكلترا.

التجار الهنود: يكاد الهنود في وقت يكونون أكثر الجاليات في الحديدة، وبيدهم زمام التجارة وعلى أكفهم يدور محورها، والحديدة مركز تجاري مهم جدًا إذ إنّ أكثر المدن والقرى التهامية تعتمد عليها في بضائعها ومواردها ولا سيما أنواع الأقمشة، والهنود لا يتجرون إلا في محصولات بلادهم من الأقمشة أجمعها، وهم بتجارتهم هذه زاحموا الأهلين وكفوا أيديهم، ولم يكتفوا بتجارة القماش، بل فتحوا المخازن العظيمة لاحتكار البن وتصديره إلى الخارج، وأظن أنّ لهم اتصالاً بالشركة الإنكليزية من ناحية سياسية، أي إنّهم يد أجنبية مسخرة للخراب في البلاد... ويقسمون إلى قسمين: قسم منهم الهنود المسلمون، والقسم الآخر من عبدة العجل والنار، ويسمون (البينيان).

ومن قراءة بحث تجارة الأجانب في الحديدة تعلمون أيّها القرّاء الكرام أنّ الأجانب متكالبون على البن اليماني؛ لاستغلاله واستغلال ضعف اليمانيين وجهلهم طرق المعاملات الخارجية والاتصال بالعالم، وهذا مما يدمي الفؤاد ويدعو إلى الأسف الشديد، فبينما ترى الوطني فقيرًا جاهلاً وخيرات بلاده بين يديه لا يدري كيف يستغلها؟! ومن أين يأكلها؟! تجد هؤلاء الغرباء يغرفون باليدين، فاليمن جوهرة نفيسة في يد فحام، فليت شعري متى يفيق اليمانيون ومن على رأسهم؟! ولعلّ الحوادث العالمية الأخيرة تهزهم فتوقظهم، والسلام.

❑ مستشرق هولندي كبير[١] ❑

هبط القاهرة منذ أيام عظيم من رجال السياسة الهولنديين، ومستشرق ممتاز تفرّد بين المستشرقين بطول الباع وسعة الاطلاع في القضايا العربية، والتاريخ العربي العام بوجه أخص، ذلك هو صاحب السعادة السيد "فان در ميولين" أحد رجال الحكومة الهولندية الذين يشار إليهم بالبنان، ومن رجالها الممتازين الذين يشغلون اليوم حيّزًا عظيمًا في مسلك السياسة الهولندية التي تمتّ إلى الشرق بجم الصلات.

ونحن إذا ذكرنا (شعب المستشرقين) واستعرضنا شخصياتهم العجيبة، بدا لنا هذا السيد العظيم من بينهم نجمًا متألقًا، وبحاثة واسع الاطلاع جم النشاط في مجال التفكير العربي العام.

وقد اكتسب هذه المزايا والمناقب عندما عينته الحكومة الهولندية قنصلاً عامًا لها في بلاط الملك ابن السعود سنة **١٩٢٧**م، ومن هذه المدة بدأت نفسه تتفتح لمسائل الشرق، فأكبّ على دراستها ومدّ حبل صداقته للعرب فآثرهم، وله مع كبيرهم ابن السعود علاقة طيبة وصداقة متينة مبنية على الحب والإعجاب.

وفي عام **١٩٣٠**م أنهى مهمته السياسية لدى الملك ابن السعود فبعثته الحكومة الهولندية في رحلة سياسية إلى حضرموت؛ لأمور تتعلق بهجرات

(١) مجلة الرابطة العربية، الجزء ١٣٨، السنة الثالثة، المجلد السادس، ٣ محرم ١٣٥٨هـ/ ٢٣ فبراير ١٩٣٩م، ص٢٤، ٤٥.

الحضارمة إلى جزائر الهند الشرقية فدخلها عام ١٩٣١م برفقة صديقه وزميله الألماني البروفسور "فون ويزمان" الأستاذ بجامعة (هامبورج) اليوم، وكانت النتيجة من هذه الرحلة أنّ أتحفا المكتبة العربية التي أوجدها (شعب المستشرقين) باللغات الأوربية بكتاب نفيس ضخم أصدره بالإنكليزية تحت عنوان «حضرموت: بعض من أسرارها المكشوفة» حوى صورًا باهرة، ودراسات ممتعة، انتزعها من صميم الحياة الحضرمية عن طريق المشاهدة، والاستكشاف، والاستنتاج.

هذا المؤلف الثمين ما رأيت له نظيرًا على كثرة ما قرأت من المؤلفات التي عنت بأخبار وطني حضرموت، وقد قمتُ بترجمة فصلين قيّمين من هذا الكتاب في هذه المجلة في سنتها الأولى الأول: عن نبي الله هود (عليه السلام). والثاني: عن برهوت الشهيرة في عالمي الخرافة والتاريخ، وانتهت رحلة حضرموت بسلام.

وإذا بهذا السيد يشغل منصب حاكم عام لبعض المقاطعات في جزيرة سومطرة، وما زالت له إلى اليوم.

أمّا مجيؤه فمن أوربا حيث قضى إجازته السنوية في بلاده، وقد طاف معالم مصر، وتفقد آثارها التاريخية ونهضتها السائرة قدمًا إلى الإمام، فأعجب بها أيّما إعجاب خاصة بدار الكتب العامرة بأجلّ التراث العربي والفكري الإسلامي.

وإذا ذكرنا دار الكتب المصرية كان لِزامًا علينا ونحن نتكلم بالمناسبة عن رجل هولندي، أن نشير بكلمة طائرة إلى ما أسداه الشعب الهولندي

النبيل، وخاصة المستشرقين وعلى رأسهم شيخ المستشرقين "هنغرنجه" إلى الثقافة العربية، وإحياء لغة الضاد من الخدمات الجلية والمجهودات الموفقة الباهرة، وإلا فهل يرى القارئ العربي أنّ بالبلاد الهولندية في مدينة Leiden مركز الثقافة العربية في الغرب مكتبة هائلة تحوي من نادر المخطوطات، ونفيس الأسفار العربية ما لا يوجد له مثيل في الشرق؟ هل يدري القارئ أنّ هذه المدينة الهولندية، وهي عش الاستشراق الهولندي اليوم، وقد ظهرت للوجود أسفارًا عربية غاية في القيمة العلمية، والإنتاج الفكري كما هي لا تزال في مكاتب الشرق تحمل طابعها القديم «بقلم معتاد» ورواده فقط، لا أريد الإطالة في هذا المجال، فحديث الاستشراق طويل عريض لا تقوم له عشرات الصفحات، وإنّما عرضت لهذه الناحية، ناحية الاتصال الهولندي العربي لوجود هذا الضيف العظيم بين ظهرانينا، إذ هو من شعب أسدى بنوه إلى الفكر العربي أجلّ الخدمات.

هذا الضيف الكريم سيغادر، أواخر هذا الشهر إلى جدة، ومن هناك سيستقل باخرة تشخص به إلى حضرموت لمسائل علمية و.. سياسية..

ونحن هنا لا تهمنا الناحية السياسية الآن غير أنه لا يسعنا إلا التفاؤل الحسن، مع صدق الوداد، ومتين العلاقات التي تربط كثير من رجال الحضارمة بهذا السيد المفضال الذي عرف بخدماته الطيبة، ومساعيه المتواصلة في توثيق العلاقات الهولندية الحضرمية.

أمّا من الناحية العلمية فأمرها عجيبٌ ومدهش، فقد تكاثرت أفواج المستكشفين إلى حضرموت في السنين الأخيرة تكاثرًا يدعو إلى الدهشة والاستغراب، ولا حاجة الآن للإطالة في هذا الموضوع وذكر هؤلاء

المستكشفين وما قاموا به من المجهودات الجبارة في سبيل العمل وإماطة اللثام عن تاريخ مستطار الفجر مازال في ضمير الدهر تحمله أرض حضرموت وما إليها من مدارج بني عاد، ومواطن الأقيال من سبأ وحمير.

وقد أطلعنا هذا السيد الجليل على كتاب صدر حديثًا في لندن بعنوان «مشاهدات في[١] حضرموت» وهذا الكتاب الثاني للسائحة الإنكليزية الشهيرة "فريا ستارك"، وأحسن كلمة تقال لهذا المجهود: إن من رسم في ذهنه صورًا خيالية عن قصور ألف ليلة وليلة في بغداد، ومحافد اليمن في أيام مملكة سبأ، وأروقة الحمراء في عهدها الزاهر، فليطّلع على هذا الكتاب فسيرى حضرموت وقد بدت في دورها وقصورها وصروحها ومصانعها، وكأنها طلسم من طلاسم الخلود الأزلي، عسر فهمه للورى تمثل هذا عندما تتصفح هذا الكتاب فتخال نفسك تمرح في دنيا تشعّ بالأنوار العبقرية والسحر والخلود، مشاهد تتلاشى دونها عبقرية الجن بله الإنس... وهكذا أصبح العرب غرباء حتى في بواديهم.

العمودي

(١) Seen in Hadramout.

❑ في بلاد اليمن[١]... ❑

"نورمان لويس" كاتبٌ وصحافي إنكليزي، وصل إلى الشواطئ الجنوبية من الجزيرة في ربيع سنة ١٩٣٧م مع صحافيين آخرين، وغرضهم اختراق الآفاق اليمنية، وإمداد صحفهم بما يلزم من المعلومات عن هذه البلاد العظيمة، وقد مكثوا في عدن قرابة الشهرين كانوا في خلالها يسعون سعيًا جادًا في إقناع ولاة الأمور هناك بارتياد الأماكن الداخلية، ولكن كلّ مساعيهم ذهبت أدراج الرياح، وبالرغم من استمالتهم لبعض الشخصيات القويّة من رؤوس القبائل في المحميات، وبالرغم من تدخل حاكم عدن وإرساله تلغرافًا إلى جلالة الإمام بصدد السماح لهؤلاء الصحافيين، فإن جلالته أصرّ على كلمته ورفض رفضًا باتًا دخولهم البلاد اليمنية، ولما كانت ظروف الرحلة قاسية كهذه فقد تعطّلت عوامل الكتابة في نفس الصحافي المذكور، وباء بفشلٍ عظيم في مهمته الصحافية، وتلاشى من خياله ذلك السفر الجميل الذي كان يحلم به عن بلاد اليمن، ولكن حيلة الصحافي واسعة، وآفاق مطامعه لا تحد، فبدلاً من أن يقدم "نورمان لويس" للعالم الغربي سفرًا عديد الصفحات قيّم السطور عن جنوب الجزيرة، للأسباب المار ذكرها، عمد إلى مجهود آخر لا يقل قيمة وعلمًا عن غرضه الأول، وذلك أنه جمع في أثناء إقامته بعدن، ووجوده على ظهر الساعية السابحة بين الشواطئ صورًا كثيرة أفرغها في كتابٍ حوى ١٢٣ صورة، وقد نشره

(١) مجلة الرابطة العربية، الجزء ١٥٥، السنة الرابعة، المجلد السابع، ١٠ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ/ ٢٨ يونيو ١٩٣٩م، ص١١- ١٢.

تحت عنوان «رمل وزبد في بلاد العرب Sand and Sea in Arabi» كان تحفةً مصورة، فإذا كانت صوره صامتة فهي أمثلة حية لتشخيص بعض النواحي الاجتماعية خطّها في سطور، ونشرها في وضع فني جميل، وهو مع ذلك لا يؤاخذ في نشره بعض المناظر المزرية، فقد جرت العادة أنّ الذين يسترخصون صورهم، ويعرضون أنفسهم لمثل هؤلاء السائحين هم عامة الناس!.

ويرى القارئ في الصفحة ١٣ صورتين جميلتين، الأولى تمثل الطبيعة باسمة في بلاد اليمن، فتلك جبال مغطاة بالأحراج، وهذه أشجار قائمة في نسق عجيب، وهذه أزهار قد تفتقت أكمامها عن نور أبيض ناصع هو متعة النظر، ومجلى الخاطر!.

إنّ هذه المنطقة الساحرة التي تمتد من العاصمة اليمنية، ثم تنحدر إلى أغوار تهامة، لهي أجمل بقعة في بلاد اليمن، فهذا الجزء يؤلف قطعة خصبة يتألف من شتيت عظيم من النباتات تُسقى بمجاري المياه المنحدرة من أعالي الجبال، وعلى حفافي الطريق الممتد من صنعاء إلى الحديدة يطفو على وجه الأرض بحر من الأشجار العطرة، ذات النشر القوي، الندي الفيّاح، مؤلف من أعواد الند، وأغراس الأثل، وأشجار النخيل والموز!.

وفي أيام الربيع ترى أعراف هذه الجبال اليمنية قد اكتست بأفواف الياسمين، وتألق في هذه الأرجاء ذلك الزهر البهي الذي ينضح في الفضاء فوعته، ويرسل لحاجب الشمس بسمته! وتخلص من هذه الآفاق المجلوة لتنحدر إلى قاع الوديان فتراها غارقةً في أشجار البن، مترعةً بكل ما لذّ

وطاب من عديد الفاكهة! بينما ترى في جوانبها أسراب الربحان[١] تنتقل من غصن إلى شذب، ومن سرحة إلى دوحة، والطيور تملأ ألحانها، والبلابل ترسل أشجانها.

قال مؤرخ عربي قديم يصف هذه البلاد:

«أمّا سكانها فأصحاء الأبدان، أقوياء الأجسام، الأمراض بها معدومة، والسموم الحيوانية والنباتية مفقودة، لا تعرف المجانين ولا العميان، ونساؤها دائمًا في شباب! وجوههن من أجواء الفردوس، ومن تدثر بثوب في الشتاء أعاد به فصل الصيف!».

فهذا كلام يصح أن يقال في الماضي، وأمّا في الحاضر فأبدانٌ قد أكلتها أغصان (القات) ومرّهم الزمن الصالح!.

أمّا الصورة الثانية فتمثل جانبًا من الحياة الاجتماعية في عدن، ترى فيها قبضة من مواطنينا العدنيين، في وضع ارستقراطي نبيل، بداخل إحدى (المخادر) يحتفون بزفاف كريم منهم فيقطعون الليل في سمر، على أنغام كركرة الرشب[٢]!.

وهذه (المخادر) عبارة عن خيم عظيمة، تقام لمثل هذه المناسبات من الأفراح.

ومن محاسن العدنيين الكريمة أنّ العريس إذا كان نضو إملاق فإنّهم يعمدون إلى نصب مثل هذه (المخادر) من قبل أيام الزفاف بأيام؛ ليستطيعوا

(١) واحدها ربح وهو القرد، وتعرف بهذا الاسم في حضرموت فقط.
(٢) واحدها رشبة وهي النارجيلة.

في خلال ذلك جمع ما تيسر من المعارف مساعدة للزوج المعسر، وهذه مَحمدة تذكر لهم بالخير والإكبار.

محمد بن عبدالله آل محمد العمودي
دبلوم دار العلوم

❑ اليمن وما فيها[1] ❑

الأستاذ محمد عوضين طه، من خيرة الشباب الناهض، وقد عاد من رحلة قصيرة قام بها في ربوع العربية السعيدة؛ دارسًا منقبًا عن شؤونها الحاضرة، ولم يكن حضرته غريبًا عن اليمن، بل كان قد أفاء فيها مدة أدى فيها نحو تلك المملكة العربية واجبًا، وحاز ثناء الأهلين وإعجابهم بوطنيته وذكائه وغيرته، وقد استطلعناه عن حالة اليمن، فأدلى إلينا بالحديث الآتي ننشره لحضرته مع الشكر:

لقد سافرت لليمن الذي أحببته من سويداء القلب مدفوعًا بشتى العوامل ورغم وصولي لليمن في أشدّ أيام الصيف حرارة كنت سعيدًا بزيارته مشرَّفًا برعاية حضرة صاحب الجلالة مولانا الإمام وحضرات أصحاب السمو أنجاله سيوف الإسلام الكرام وسيادة أمير لواء الحديدة، ولقد رحلت عن اليمن الميمون وجلالة الإمام أيده الله في مصيفه خارج صنعاء ممتّعًا بكامل الصحة، وسمو ولي عهده يفتش على القوات العسكرية في الحدود، ويشرف على التحصينات في باب المندب.

ولقد سرت الروح العسكرية في الشعب من أقصاه إلى أقصاه يأتون أفواجًا من شباب القبائل والمزارعين عن رغبة واختيار للتدريب العسكري، ورغم أنّ الشعب بطبيعته إلا أنّها نهضة تبشر بالخير كل الخير، حتى إذا

(١) مجلة الرابطة العربية، الجزء ١٦٢، السنة الرابع، المجلد السابع، ١ رجب ١٣٥٨هـ/ ١٦ أغسطس ١٩٣٩م، ص٧-٨.

نضح للنفير العام ألفيت الشعب كله كتلة واحدة ملمًا بالحركات العسكرية النظامية وباستعمال الأسلحة الحديثة.

ولقد تقدمت الصناعة وبخاصة في النسيج، وبجانب هذا فالزراعة إلى نماء وازدهار، ولقد وجهت الحكومة عنايتها لاختيار بعض المهندسين الزراعيين من العراق وسوريا ومصر، وهذه سنة حسنة نرجو أن تستمر عليها الحكومة المتوكلية من اختيار الأكفاء من أبناء العالم الإسلامي لزيادة تمكين الروابط التي تقدرها حكومة اليمن حق قدرها وبخاصة في الظروف الدولية الحاضرة، وفي اعتقادي أنّ اليمن حكومة وشعبًا تنظر للوحدة العربية كوسيلة للغاية وهي الوحدة الإسلامية التي نرجو لها تحقيقًا قريبًا.

أمّا طريق السيارات بين صنعاء والحديدة فمطروقة، والحكومة تعنى بتعبيدها دائمًا.

أمّا الناحية الاقتصادية فالأمل عظيم في العناية بمسألة العملة وتثبيتها حتى لا تتلاعب بها الأسواق الخارجية، ولعل الشركة اليمانية التجارية التي وجه سمو الأمير سيف الإسلام علي عنايته لإنشائها أخيرًا تضع حدًا لجشع بعض البيوت التجارية بالنسبة لبعض السلع الرئيسية وأهمها البترول، فالغرم واقع على المستهلك الصغير وفي خسارته خسارة للوطن، ولعل الشركة السالفة الذكر تعنى عناية خاصة بأهم حاصلات اليمن وهو البن فتعمل لإيجاد وكلاء لها في مختلف الأقطار التي تستهلك منه كميات كبيرة، لا يتاجرون إلا في البن اليمني الخالص فقط؛ لأنّ الكثير من التجار في مختلف الأقطار يدفع بهم الطمع لخلط البن اليمني بأصناف أخرى رديئة، الأمر الذي أدى إلى إساءة سمعة البن اليمني وهو ملك البن في العالم بأسره.

والتعليم مزدهر في اليمن بعناية سمو الأمير سيف الإسلام عبدالله وترسل البعثات دومًا إلى العراق.

أمّا سياسة اليمن الخارجية فتقوم على أساس الصداقة والاحترام المتبادلين مع الدول الأجنبية جميعًا.

ولقد رأيت خلال زيارتي الأخيرة تأثرًا شديدًا من الشعب اليمني لما يجري في فلسطين وعطفًا منهم على إخوانهم فيها، وفي الواقع إنّ هذه القضية قد أحدثت جرحًا لا يندمل في قلوب أبناء الإسلام جميعًا، وأساءت لسمعة بريطانيا التي ضاعفت ألم اليمن منها بإيجاد الخلاف رغم الصفاء، وكان رائد الحكومتين من زمن بعيد بشأن شبوة والعبر وكلتاهما من اليمن قديمًا وحديثًا لم يتملكهما أجنبي قط، ولم تحكم إلا في ظل أئمة اليمن الأطهار وهو موقف يثير ألم كل عاقل، ونرجو أن تعمد الحكومة الإنكليزية إلى إحقاق الحق وإعادته لأهله، فالمعاهدة اليمنية الإنكليزية التي عقدت في ١١ فبراير سنة ١٩٣٤م بحضور السير "رايلي" والي عدن الحالي قد حددت حدود اليمن صراحة ولا معنى للاعتداء على منطقة يمانية، وإنه في ظل قدوم رؤساء قبائل الكرب والصيعر إلى صنعاء منذ سنوات ثلاث (وهي أشد قبائل شبوة والعبر مراسًا) وتجديد طاعتهم وإعلان ولائهم لحضرة صاحب الجلالة الإمام وتقديم الرهائن دليل قاطع على يمنية هذه المنطقة التي يُعتدى عليها اليوم، ويراد اقتطاعها عن أمها اليمن، والأمل كبير بعد أن ساءت العلاقات بين صنعاء وعدن واستئنافها بين صنعاء ولندن رأسًا أن يضع ساسة إنكلترا حدًا لهذا الحالة، وخيرٌ لإنكلترا أن تداري وتكسب عطف هذا وذاك، وبخاصة في هذه الآونة بدل أن توجد لها خصوم هي أحوج ما تكون

إلى صداقتهم.

ولقد رأيت من أبناء اليمن تذمرًا لمسلك الحكومة الإيطالية تجاه من يذهب منهم إلى إريتريا وتطبيق مرسوم العملة الإيطالية عليهم، وإنّي أعتقد أنّ والي إريتريا ورجال حكومته يقدرون حسن معونة أبناء اليمن ونشاطهم في مختلف المرافق العملية، فمن اللائق التضييق عليهم حين رحيلهم عن إريتريا وعدم التصريح للواحد منهم بأكثر من ثلاثمائة وخمسين ليرة إيطالية، وهو مبلغ معادل لثلاثة جنيهات مصرية أو أقل، وفي إمكان حكومة إريتريا استصدار الأمر من روما للتصريح لليماني المسافر باستبدال ما ادخره من الليرات الإيطالية بريالات (تستحضر في بنك دي روما بمصوع) ولحد معين يصل إلى ألف ريال مثلاً، وفي هذا من التيسير بعض الشيء، أعتقد أنّ حكومة إريتريا ستحرص عليه إن شاء الله هذا مجمل الحالة في اليمن.

ولقد كان بودي أن يطول بقائي فيها لولا انتهاء إجازتي، ولقد شرّفني سمو الأمير سيف الإسلام عبدالله بثقته الغالية ودعاني لوظيفة في العاصمة، ولقد اشتدّ أسفي لعدم تمكني من حيازة هذا الشرف بحينه لارتباطي بوظيفتي في مصر في الآونة الحاضرة.

ولا يفوتني قبل أن أختم حديثي أن أسطّر على صفحات مجلتكم الغراء آيات ولائي وإخلاصي واحترامي لحضرة صاحب الجلالة مولانا أمير المؤمنين الإمام أيده الله، وشكري الذي لا يُقدّر على ما تفضل وحباني به من فضل ورعاية، وكذا حضرة صاحب السمو ولي العهد، وحضرات أصحاب السمو الأمراء جميعًا، وحضرة صاحب السيادة عبدالله بن أحمد الوزير أمير لواء الحديدة، فلقد رأيت من حضراتكم جميعًا فضلاً ونبلاً

وغيرة ورعاية لمصالح اليمن المحبوب الذي نرجو له دوام السؤدد والعز والرفعة والمنعة في ظل جلالة مليكه المعظم.

ولا أنسى في ختام الحديث أن أشكر لصاحب الرابطة العربية الأستاذ الفاضل عبدالغني الرافعي عنايته بالأقطار العربية عامة واليمن خاصة، وغيرته على الأقطار الإسلامية، وفّقه الله لما فيه الخير الدائم.

(محمد عوضين طه)

❑ سائحة إنكليزية تتكلم ..[١] ❑

رسالة خاصة من الآنسة فريا ستارك

الآنسة "فريا ستارك" سائحة إنكليزية اشتهرت برحلاتها في ربوع الشرق العربي، ولها مؤلفات عديدة في هذا الشأن، وقد خصّت حضرموت بأكبر عنايتها، فكتبت عنها كثيرًا، وفي الأسطر التالية يرى القارئ رسالة خاصة منها إلى حضرمي معروف، ردًا على رسالة منه، ننشر منها ما يهم الاطلاع عليه لما فيها من وجهات نظر...

رسالتك المطربة ذات الأهمية العظيمة وصلتني من أربعة أسابيع مضت، وأستميحك العذر إذا تأخرت في الإجابة عليها؛ لأن وقوع الحرب قد غيّر مجرى الحياة اليومية عندنا في كل شيء... والآن يمكنني أن أختلس جزءًا صغيرًا من أوقاتي لأشكرك على تفضلك بالكتابة، ومع كل هذا فلا يمكنني أن أدخل معك في تفاصيل بعض النقاط التي أثرتها في كتابك؛ لضيق الوقت أو عدم ملائمة الظروف.

أمّا من جهة صداقتي وشعوري نحو العرب والرغبة في تقوية عظمتهم وحريتهم فهم من الحق بمكان، يشاركني في هذا الشعور جمهور عظيم من أبناء وطني في هذه البلاد... ولكنك تعلم أنّنا الآن في حالة حرب، ليس فقط لمجرد حريتنا، ولكن دفاعًا عن صداقتنا وحلفائنا... ويخيل إليّ أن الحرب ستدوم طويلاً لأننا أعطينا التاريخ كلمة شرف!.. وهذا ما يجب أن

(١) مجلة الرابطة العربية، الجزء ١٧٤، السنة الرابعة، المجلد السابع، ٢٦ رمضان ١٣٥٨هـ/ ٨ نوفمبر ١٩٣٩م، ص٧-٨.

يفهمه العرب، فإذا فهموا هذا فإنّنا أصدقاء لهم دائمًا، ولو وقعت بعض الأخطاء والتصرفات من جانب على الجانب الآخر..

وأنا شخصيًا معتقدة تمام الاعتقاد أن فلسطين بلد فيه أغلبية ساحقة من العرب يجب أن يساعدوا، وأنا لا أخفي هذه النظرية بحال من الأحوال، ولكن مع الأسف يوجد جهل عظيم، إن لم نقل مرض، في بلادنا.

وفي استطاعتك أن تلاحظ إذا درست النصوص والتقارير في جوٍّ هادئ أنّ الحكومة البريطانية لم تنس مطالب العرب، وتحقيق رغائبهم، وأرجو من الله أن يوفقني مع جماعةٍ من أصدقاء العرب في بريطانيا في تمكين هذه الصداقة، وإيجاد حسن تفاهم في أقرب فرصة، وسترى أنّ جميع أحوال العرب الفلسطينيين سيعنى بها عناية خاصة في هذا الشأن.

وأمّا من طرف "إنجرامس" فقد قسوتَ في حكمك عليه؛ لأنّه لم يقم بأي عمل من الأعمال في حضرموت إلا بإشارات ورغبات رؤساء البلاد، القعيطي والكثيري، فهل يلام إذا قام بتنفيذ رغائب أولئك الذين ألقى إليهم الحضارمة أنفسهم مقاليد أمورهم؟

وأما قصة ضرب الطائرات البريطانية لبعض مدن حضرموت فهذا ليس بصحيح! إذ إنّ هذه الإشاعة أذاعتها بعض الدول الأجنبية التي يهمها أن تخلق لنا مشاكل في كل البلاد..

وأنا قد حققتُ هذا بنفسي ولو كان غير صحيح لكنت أنا شخصيًا كتبت كلمة نقد وتقريع في مؤلفي؛ لأن هذا لا يليق بمكانة شعب متمدن حر يُقدم على مثل هذه الأعمال التي هو يحتج عليها بينما ممثليه يقومون بمثل هذه

الأعمال غير المشرّفة..

أمّا الحقيقة التي ندين بها وتعترف بها مصالح بريطانيا هو أن يقوى العرب ويأخذوا حظهم من الحياة.

نحن شعب لا نطمع في بلاد.!. وكل ما نحتاج إليه ونسعى له كل السعي هو أن نؤمّن طرق مواصلاتنا البرية والبحرية إلى الهند وأستراليا، ثم نقل الزيت من إيران وبلاد العرب؛ لأنّنا شعب تجاري.. وهذا هو كل أملنا في الحياة، لهذا ترانا نرغب في تقوية البلاد العربية، ونأمل أن يسود السلام في كلّ أرجائها؛ لنستطيع المحافظة على مواصلاتنا... فإذا ضُمن لنا هذا فإنّنا لا نرغب في شيء آخر غيره، وخذوا مثالاً لذلك.. العراق.

ومع كل درس هذه القضايا، فتأكد أنّ إرسال القوات الجوية البريطانية إلى حضرموت، بين الفترة والأخرى، إنّما هو لتأمين الطرق، ونشر السلام في تلك البلاد التي يروعها رجال القبائل الذين لا يُقرّون ولا يعترفون بسلطة أولئك الحكام.

❑ سائحة إنكليزية تتكلم[1] ❑

سيدي الأستاذ صاحب الرابطة الغراء:

تحية وسلامًا وبعد، فقد اطلعت على ما نشرتموه في العدد (١٧٤) من الرابطة الغراء على كلمة للمسز "فريا ستارك" الإنكليزية والمسز "ستارك" تقلد المرحومة المسز"بل" الإنكليزية الشهيرة التي جالت في الصحراء، وعاشرت البدو واستوطنت العراق ثم توفيت، وقد كانت ذائعة الصيت في الشؤون العربية عامة وبأمور العراق على وجه أخص، ومعلومات المسز "ستارك" هذه عن بلاد العرب قليلة بالنسبة للمسز "بل" إذ إنّها على ما نعلم لم تتحول إلا في حضرموت وقد خبرت ربوع هذه المملكة العربية باختلاطها بالرجال والنساء، ونشرت كتابًا عن حضرموت محلى بصورة بديعة ومتقنة عن الحياة الحاضرة في حضرموت.

ومما لا شك فيه أنّها قد أعجبت بالفطرة العربية وبالأخلاق العربية، وبما امتاز به العرب من الترحيب بالضيف والوفاء وغير ذلك من الخصال الكريمة، وقد سرني أنّ المسز "ستارك" قد أصبحت من جملة محبي العرب من الإنكليز والمدافعين عن حقوق هذه الأمة، ويسرنا أن يكون بين الإنكليز من يعرفون حقيقة العرب لقومهم الإنكليز وهذه دعاية للعرب، ومفيدة أيضًا للإنكليز إذ يصححون نظرياتهم عن العرب، وسرّني فوق كل ذلك تأكيد المسز "ستارك" أنّ الإنكليز لا مطمع لهم في بلاد العرب أكثر

(١) مجلة الرابطة العربية، الجزء ١٧٥، السنة الرابعة، المجلد السابع، ١١ شوال ١٣٥٨هـ / ٢٢ نوفمبر ١٩٣٩م، ص٥-٦.

من أن يحرصوا على تأمين سلامة المواصلات لإمبراطوريتهم فإذا ضمنوا ذلك فلا غاية لهم في استعمار حضرموت ولا غيرها من بلاد العرب، وإنّ أعظم دليل على صدق ما تذكره عن نيابة قومها الإنكليز العراق وما حصلت عليه من حرية واستقلال، وأنّ الإنكليز تجار قبل كل شيء، وراقنا من كلامها تطرقها إلى مشكلة فلسطين وتأكيدها أنّ هذه المشكلة سوف تحل على ما يرضي العرب، وإنا لنرجو أن يتحقق هذا الذي تذكره وتؤكده المسز "ستارك" من جملة العاملين على أن تخطو الدولة البريطانية خطوات صحيحة لإرضاء الأمة العربية في إنالة عرب فلسطين حقوقهم، وتطمينهم على مستقبل وطنهم، والظاهر أنّ مسز "ستارك" قد لمست وهي في حضرموت وعدن مقدار تمسك الأهلين بمستقبل فلسطين وانزعاجهم من الحالة التي تغشى ذلك القطر العربي.

أمّا تصريحاتها عن حالة حضرموت وما يكتنف هذا الوطن العربي من الظروف والمشاكل وعن أعمال المستر "إنجرامس" المستشار الإنكليزي، وإخلاله من كل مسؤولية، وعزوها ما يقوم به من الأعمال إلى رغبة سلاطين حضرموت القعيطي والكثيري، فهذا ما أريد مناقشة المسز "ستارك" فيه، فإن المستر "إنجرامس" يتدخل في كل كبيرة وصغيرة ويهيمن على كل شيء في حضرموت من غير حق، إذ المعروف أنّ سلطنة الشحر والمكلا وسلطنة الكثيري أيضًا مستقلتان في شؤونهما الداخلية استقلالاً تامًا، فسلطنة الشحر والمكلا بينها وبين بريطانية معاهدة صريحة لا تبيح لحكومة عدن التدخل في شؤونها الداخلية مطلقًا، أمّا سلطنة الكثيري فإنّها بالرغم من عدم وجود معاهدة بينها وبين بريطانية ملحقة

بالحماية التبعية؛ لأن المعاهدة المعقودة بينها وبين سلطنة الشحر والمكلا تُحتّم عليها أن لا تتخابر مع الدولة الحامية (بريطانيا) الممثلة بحكومة (عدن) إلا من طريق سلطان الشحر والمكلا.

ثم إنّ المستر "إنجرامس" هذا رحل في هذا الصيف إلى بلاد (الملايو) و(سنغافورة) لمباحثة الجاليات الحضرمية في الجهات المذكورة فيما يرونه عن مستقبل حضرموت وعن الإصلاحات المنوي إدخالها فيها، وقد قاطَعَته بعض الأحزاب الحضرمية في الجهات المذكورة ولم تستقبله، احتجاجًا منها على تدخله في شؤون الوطن الحضرمي، وهي أمور خارجية عن سلطته، وكأنّه بهذا العمل قد تجاوز حدود وظيفته الأصلية، وهي تمثيل حكومة عدن لدى سلطان الشحر والمكلا فقط، ومن هذا تبين لنا أنّ كلام المسز "ستارك" وإشارتها عن المستر "إنجرامس" وتبرئته من كل عمل يأتيه في حضرموت كلام لا يتفق مع الحقيقة، ودفاعها عن "إنجرامس" لا يزيل الحقائق البارزة في حالة حضرموت، ومداخلة المستر "إنجرامس" في كل كبيرة وصغيرة من شؤونها لا يبيحه أهل حضرموت، ولا يرضى به العرب في وقت من الأوقات لمخالفة ذلك للنهضة الحضرمية من شباب حضرموت ومستنيريها والذين درسوا في الخارج، ومن هم في المهاجر من أسرتها ورجالها وزعمائها لا يرغبون أن يعتدي على استقلالهم الداخلي وحريتهم القومية وما نشؤوا عليه من العادات وعزة النفس وغير ذلك.

فعسى أن المسز "ستارك" تصحح رأيها من هذه الناحية، وعسى أن يتدارك أولياء الأمور من الإنكليز كبرياء المستر "إنجرامس" ومداخلاته في شؤون البلاد، وبهذا يمكن إرضاء الحضارمة وإزالة شكاياتهم ونكون قد

وضعنا الأمور في نصابها.

ولعل مثل هذه الكلمة تجد من نفس المسز "ستارك" -وهي أعرف من غيرها بحالة حضرموت- مكانًا مناسبًا، ولا يضيع حقٌ وراءه مطالب.

عربي